صورة الجزائر في القرن 19 من خلال المصادر التونسية " إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان "صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" نموذجا

محمد صلاح حقي
مساعد للتعليم العالي وباحث
بمخبر دراسات مغاربية كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بتونس

تمهيد

لا يعتبر تناول تاريخ الجزائر في الفترة الحديثة أمرا جديدا لأن المؤرخين والكتاب الجزائريين تطرقوا إلى ذلك بإطناب كبير غير أنهم ركزوا على التاريخ السياسي لبلدهم من خلال المصادر الجزائرية وحتى الغربية في محاولة منهم – على ما يبدو – إنقاذ تاريخهم الذي حاول الاستعمار طمسه وأهملوا تاريخ الجزائر في عيون المؤرخين التونسيين لاسيما أحمد إبن أبي الضياف (1802-1874 م) ومحمد بيرم الخامس (1840-1989 م / 1255 هـ -1307 هـ) اللذان تناولا تاريخ هذا البلد بنظرتين مختلفتين ولكنهما مكملتان لبضهما البعض فالحديث عن الرجلين تفرضه قواسم مشتركة ذلك أنهما من مؤرخي القرن التاسع عشر، كما يشتركان في الانتماء الجغرافي (تونس)، ثم – وهو الأهم – تعرضهما لصورة الجزائر بطريقتين مختلفتين ومن مواقع وظروف معينة لم يكن أحدهما فيها صاحب قرار إذ أن صاحب الإتحاف مثلا تناول الجزائر من موقعه كرجل سياسة في البلاط فكأني بها فرضتها أحداث تلك الفترة وبيرم هو الآخر فرض عليه الحديث عن الجزائر من طرف مرضه حيث أن "مصيبته" هي التي ألقت بالجزائر في طريقه لما كان مسافرا إلى فرنسا للتداوي فلم يفوت فرصة وصفها.

خصص " الإتحاف" جزءا كبيرا للحديث على الجزائر في علاقتها بتونس ولكن في المجال السياسي – العسكري وخاصة في علاقتها مع تونس والباب العالي فقط مهملا بذلك بقية الجوانب و مرد هذا الأمر أن الرجل كان يشتغل في خطة وزير لدى البايات التونسيين آنذاك وكان يكتب من خلال التقارير الرسمية فتكون بذلك رؤيته للجزائر غير مكتملة وقد يكون تناوله للأحداث مثيرا للجدل وربما

للاتهام فلا أظن أن الرجل وهو يشتغل لدى البايات قادر على انتقاد أيالة تونس وتحميلها المسؤولية فيما حدث مثلا من توتر بينها وبين ايالة الجزائر لذلك نراه يحمل هذه الأخيرة مسؤولية توتر العلاقات مع تونس فصاحب الإتحاف كتب إذن التاريخ السياسي والعسكري الجزائري من خلال ما توفر له من تقارير رسمية فهو لم يزر الايالة وبالتالي لم يكن شاهد عيان، أما محمد بيرم الخامس فقد زارها وتجول بين أزقتها وأنهجها وتحدث إلى أهلها فكتب لنا تاريخ هذا البلد الإقتصادي والإجتماعي وحتى الديني رغم أن الديني هو جزء من الإجتماعي والفني وكل الجوانب تقريبا باستثناء العسكري والسياسي الذي جاء الحديث عنه مقتضبا فكان بذلك شاهد عيان ولم يشغل خطة سياسية يمكن أن تعيقه عن كتابة تاريخ الجزائر لذلك كانت شهادته أكثر دقة وتحررا من إبن أبي الضياف فنحن إذن أمام رؤيتين رؤية محمد بيرم الخامس ورؤية ابن أبي الضياف واحدة تكمل الأخرى لتكتمل صورة الجزائر بالجمع بين المؤلفين .قبل التطرق إلى صورة الجزائر لابد من التعريف بالرجلين والأثرين وذلك لضرورة منهجية .

I- أحمد بن أبي الضياف وكتابه"الإتحاف"

1- أحمد بن أبي الضياف : أسلوبه وآراؤه

ولد أحمد بن أبي الضياف في بداية القرن التاسع عشر وتوفي قبل انتصاب الحماية (1802م– 1874م) وحياته مرتبطة أساسا ببلده وبالقرن التاسع عشر وبالوضع السياسي القائم آنذاك في تونس وهو من أصل تونسي وحسب نسبه "العوني" فانه يعود إلى قبيلة أولاد عون التي كانت تعيش في جهة سليانة وقد كانت هذه القبيلة تتمتع ببعض الحظوة عند البايات ثم إن عائلته كانت تتمتع بصيت لدى قبيلته باعتبار أن نسبها مرتبط بولي صالح هو سيدي أحمد الباهي[1] . إستقر أحمد ابن أبي الضياف منذ طفولته في حي باب سويقة قريبا من الزاوية البكرية وما نلاحظه أن مستقر عائلة الرجل غالبا ما يكون قرب الزوايا وفي ذلك دليل على الرغبة في أخذ العلم إذ لعبت الزوايا دورا كبيرا في نشر العلم في تونس (الزيتونة) ومصر(الأزهر) وفاس (جامع القرويين) مما يبين لنا دور

[1]- عبد السلام (أحمد)، المؤرخون التونسيون في القرون 17 م و18 م و19 م رسالة في تاريخ الثقافة، ترجمة أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي، قرطاج، بيت الحكمة ، 1993، الطبعة الأولى ، ص 385

المؤسسات الدينية في نشر العلم واشرنا إلى هذا الجانب الديني باعتباره عاملا مهما في تكوين شخصية كاتبنا. كما لا يمكن إغفال الجانب السياسي حيث حظي ابن أبي الضياف صحبة عائلته باهتمام وعناية الوزير يوسف صاحب الطابع مما يدفعنا إلى القول بان الرجل عاش منذ صغره إلى جانب الوزراء والبايات وهو ما سيسهل عليه التعامل مع حياة القصور فيما بعد، فالحظوة التي كان يتمتع بها والده الحاج بالضياف لدى يوسف صاحب الطابع جعلت الإبن يتلقى دروسا على أيدي أحسن أساتذة العصر، ويشير أحمد عبد السلام إلى أن نحافة بدن كاتبنا هي التي دفعت بوالده إلى الحرص على توجيهه لطلب العلم[1]، وهو ما يؤكد حرص عائلة بأكملها على النهل من منابع العلم.

تذكر المصادر أن ابن أبي الضياف كان فطنا قوي الملاحظة وقد كان والده يصطحبه إلى بعض الدروس في الجوامع ، حفظ القرآن وهو طفل في كتاب "سيدي ابن عروس" ثم حضر في جامع يوسف صاحب الطابع الجديد وفي مدرسته وفي جامع الزيتونة دروس أساتذة أكفاء[2] من المذهبين المالكي والحنفي وهنا نلاحظ أن الرجل ينهل من المذهبين[3] فقد كان ملما بشتى أنواع العلوم (أدب، شعر، ترسل، علوم صحيحة...).

تحصل أحمد بن أبي الضياف في شوال 1237هـ/ جوان 1822 على معارف كافية مما أهله إلى إدراج إسمه ضمن قائمة العدول الذين عينهم الباي حسين بن محمود بمناسبة عيد الفطر من نفس العام وهنا تستدرجنا ملاحظة تهم هذه الخطة التي اضطلع بها الرجل، فحسب الكتابات فان ابن أبي الضياف قد أهله علمه لهذه المهمة وهذا أمر لا شك فيه باعتبار انه من عائلة وجهة في القرن التاسع عشر ولكن أليس للجانب المالي دورا أيضا في وصول الرجل في ظل فقر بقية العائلات وعجزها عن تدريس أبنائها باستثناء أقلية؟ أفلا يوجد في تلك

---

[1]- عبد السلام (أحمد)، المؤرخون التونسيون ...، مر.س، ص 389.

[2]- مثل المفتي المالكي الأول إسماعيل التميمي وإبراهيم الرياحي وعبد الرحمان الكامل والقاضي المالكي محمد المجري بن عبد الستار والمفتين بالمذهب الحنفي محمد بيرم الثالث ومحمد بن الخوجة واحمد الأبي والشيخ محمد بن ملوكة والكاتب محمد المناعي.

[3]- المذهب الحنفي هو المذهب التركي (العثماني) والمالكي هو المذهب الرسمي للأهالي (التونسيون).

الفترة من يضاهي كاتبنا في قيمته العلمية حتى لا نقول من هو أكفأ منه ولكنه ظل مغمورا؟ وبالتالي يصبح العامل الرئيسي والأهم في ظهور إبن أبي الضياف هو قرب أسرته من الحكام والقصور والحظوة التي كان يتمتع بها والده في ذلك الوقت. فالظروف كانت إذن مهيأة للرجل ربما حتى قبل ولادته.

أيقن صاحب الإتحاف أن تحرير الوثائق المتعلقة بأملاك الدولة وبالأوقاف مجلبة للثروة عند العدول لذلك اتجه إلى شيخه محمد المناعي – الذي كان عدلا وكاتبا في الدواوين – كي يدربه على تحرير الرسائل والتقارير والوثائق الأمر الذي يؤكد ذكاءه ورغبته في كسب الثروة أو ربما في اقتحام قصور البايات كما فعل والده سابقا، كما عرف الرجل أيضا بمجالسة قاضي العاصمة محمد البحري بن عبد الستار وهو ما سمح له بالاطلاع على الوثائق المحررة ومكنه من أن يكون بارعا في التحرير والمحاضرة. هذه البراعة التي تمتع بها ابن أبي الضياف من ناحية ومكانة والده لدى عدد من الأعيان مكناه من اقتحام عالم الدواوين حيث تم تعيينه في أول شوال 1242هـ / 1827م من قبل حسن باي بن محمود كاتبا رغم معارضة والده. وهكذا أصبح الرجل همزة الوصل بين الباي ووزيره شاكير صاحب الطابع يحرر رسائلهما ويمسك دفاتر حسابهما فكان بالنسبة إليهما " كاتب السر" وهو نفس الدور الذي سيلعبه بين مصطفى باي ووزيره مصطفى صاحب الطابع ولدى أحمد باي ووزيره مصطفى خزنه دار، وبهذا أصبح قريبا من الباي لا يفارقه "يحرر المناشير ويقوم بالمأموريات الدقيقة داخل البلاد وخارجها"[1] .

لم يمنع هذا القرب من رجال السياسة ابن أبي الضياف من مخالطة علماء العصر الذين عرفوا بشيء من حرية الرأي والذين كان يبادلهم الأحاديث العلمية والأدبية أمثال إبراهيم الرياحي، وهو ما دفع بحسين باي الثاني إلى إقناع هذا الأخير بقبول رئاسة الإفتاء بالمذهب المالكي، أما بالنسبة لعلاقة كاتبنا بالبايات فقد كان يسودها شعورا بتفوقه عليهم غير أنه كان حريصا على عدم إظهار ذلك باستثناء أحمد باي وهو الباي الوحيد الذي شعر تجاه أحمد بن أبي الضياف "بالمحبة الصادقة والتقدير الحقيقي وباعتراف بالجميل للأيادي الفائقة التي نالته

[1]- عبد السلام (أحمد)، المؤرخون التونسيون ... مر.س، ص 392

منه "[1] إذ منذ أن تولى هذا الباي السلطة سنة 1253هـ / 1837م اتسعت صلاحيات كاتبنا، ومن أهم الوظائف التي أسندت إليه هي وظيفة " كاتب سر الباي" وهو ما يعني حضوره الدائم في الاجتماعات المتعلقة بالمسائل الهامة، كما كان احمد باي يستشيره ويستمع إلى رأيه ويعول عليه في تحرير المكاتيب، ومن بين الاجتماعات التي حضرها تلك المتعلقة باحتلال فرنسا للجزائر والتي تذكر بعض المصادر والمراجع تورط تونس فيها، ومن ابرز مظاهر الحظوة التي كان يتمتع بها في عهد هذا الباي سفره سنة 1831م صحبة مصطفى البلهوان إلى اسطنبول للدفاع عليه وحضوره مفاوضات دارت في ديسمبر 1832م – اثر خلافات – حصلت بين تونس ودولة سردانيا وكذلك سفره إلى فرنسا سنة 1846م عندما صاحب احمد باي، كما أوكل له في عهده الاهتمام ببعض شؤون الدولة خاصة شؤون ذات طابع خاص، وقد كان احمد بن أبي الضياف يناقش الباي في أمور الدولة وحتى في أموره الخاصة أي العائلية حتى وصل به الأمر إلى التنقل في المواكب الفخمة إلى جامع الزيتونة وهي من عادات البايات.

من خلال ما تقدم نلاحظ أن الرجل لم يعد كاتبا فحسب بل أيضا شريكا في اخذ القرارات من خلال النصائح التي يقدمها للباي من حين لآخر وربما "***كان*** هو الحاكم بطريقة غير مباشرة"- والكلام لأحمد عبد السلام[2] – نظرا لحاجة الباي أحمد الملحة لوجوده إلى جانبه، غير أن هذه الحظوة ستتقلص مع محمد باي[3] ليعود الرجل إلى مهمته العادية خاصة مع "عهد الأمان"[4] إذ كان من بين أعضاء لجنة عينها الباي لتحرير الدستور، وقد اضطلع ابن أبي الضياف بمهمة التحرير، كما شارك في أعمال المجلس الأكبر وازدادت أهميته في عهد محمد الصادق باي وأصبحت له أشغال كثيرة إلى درجة اضطرار هذا الباي إلى تعويضه في بعض المهام بمحمد العزيز بوعتور، ولئن بدا هذا التعويض في ظاهره ناتجا عن

---

[1]- عبد السلام (أحمد)، المؤرخون التونسيون ... مر. س، ص 393.

[2]- نفس المرجع، ص 394

[3]- تم اتهام ابن أبي الضياف بإعانة الباي احمد على عدم التقيد بالسنن المعتادة في تعيين رجال الشرع.

[4]- صدر عهد الأمان سنة 1857م في عهد محمد باي ومن بين بنوده تأكيد الأمان لسائر الرعية والمساواة بين المسلم وغيره ...، الإتحاف ... مص. س ج 4، ص ص 242. 243.

الضغط المسلط على ابن أبي الضياف وكثرة مهامه إلا انه في باطنه إيذانا ببداية تضاؤل دور الرجل السياسي ولكنه سرعان ما عاد إلى الواجهة السياسية عند اضطلاعه بمهام رئاسة لجنة لفصل القضايا بين التونسيين والأجانب سميت بـ"المجلس الوقتي" في 15 ذي الحجة 1277هـ / 24 جوان 1861م وترقيته إلى رتبة " أمير لواء" ومنحه لقب "وزير" كما عين نائبا ثانيا لرئيس المجلس الأكبر في نوفمبر 1862م اثر استقالة خير الدين من منصبه وخلافته من طرف مصطفى خزنه دار الذي تولى رئاسة المجلس ثم مستشارا للخارجية.

من بين الوظائف الأخرى التي تقلدها ابن أبي الضياف نذكر تعيينه في جوان 1869م عضوا في لجنة كلفت بمراجعة حسابات احمد زروق ومستشارا للقسم الثالث من الوزارة الكبرى التي استقال منها سنة 1872م لعجز صحي. وهكذا يعتبر ابن أبي الضياف من اكبر موظفي الدولة حيث اضطلع بمهام متعددة سمحت له بالاطلاع على أسرار الدولة بما في ذلك علاقة تونس بجارتها الجزائر وهو الأمر الذي دفعنا إلى البحث عن صورة هذه الأخيرة في " الإتحاف" الذي ألفه بين 1862م و1872م.

إن الحديث عن احمد بن أبي الضياف المؤرخ يدفعنا ضرورة إلى العودة إلى منشأ الرجل ومحيطه الاجتماعي وفي هذا الإطار يقسم احمد جدي حياة الرجل إلى ثلاثة أوجه : الوجه الأول يتعلق بولادته وشبابه وطفولته وتكوينه والوجه الثاني بتجربته الاجتماعية- السياسية وبالصعوبات التي اعترضته والمرحلة الثالثة والتي اعتبرها أحمد جدي قصيرة من 1870 إلى 1874 وهامة في تاريخ ابن أبي الضياف فهي مرحلة شيخوخته[1].

استطاع الرجل الذي ينتمي إلى الوسط القبلي[2] أن يتحول إلى منظر سياسي ومفكر اجتماعي وثقافي في تونس في فترة ما قبل انتصاب الحماية أي في القرن التاسع عشر واستطاع أن يقتحم المجال المديني بسهولة أكثر من والده الذي وجد صعوبات في انتقاله من مجاله القبلي إلى تونس (الحاضرة) وهذا أمر طبيعي فابن أبي الضياف ولد في تونس وبالتالي فان علاقته بالوسط القبلي هي في

[1] - JDEY (Ahmed), AHMED IBN ABI DHIAF , son oeuvre et sa pensée: essai d'histoire culturelle, Zaghouan, FTERSI , Janvier1996 ,pp: 48-49.

[2] - من قبيلة أولاد عون بجهة سليانة

الحقيقة علاقة موروثة عن والده ليس إلا، إذن هو ابن الوسط المديني ووالدته هي شلبية بنت علي بن حميدة بن محمد بن المبروك جعيط، وكما هو معلوم فان عائلة جعيط هي عائلة عريقة في تونس القرن التاسع عشر وهذا يعد عاملا آخر ساهم في سرعة اندماج كاتبنا في الوسط المديني.

هناك إذن ممهدات لنجاح ابن أبي الضياف تعود إلى طفولته إذ كان الذكر الوحيد في أسرته وكما لا يخفى فان للذكر حظوة لدى الأسرة التونسية والعربية عموما في القرن التاسع عشر. جعلت هذه الحظوة الرجل يخضع إلى عناية فائقة من طرف عائلته التي حرصت على تعليمه تعليما مثاليا يجعله يتفوق على أبناء عصره مما هيأه- منذ البداية- إلى تبوء مكانة هامة في عصره خاصة إذا علمنا أن والده كان من المقربين لأصحاب القرار في تلك الفترة ولو توفرت هذه الظروف لبعض أبناء فترته لكانوا بدورهم من ابرز أعلام القرن التاسع عشر، فالطريق الممهدة والظروف الملائمة نحتت شخصية ابن أبي الضياف المؤرخ لكن ذلك لا يحجب عنا بعض الصعوبات التي عاناها الرجل[1].

تقلد ابن أبي الضياف الذي كان يبلغ من العمر 22 سنة وظيفة عدل سنة 1822 والتي تعتبر من الوظائف الكبرى في البلاد آنذاك ويذكر أحمد جدي أن زواج ابن أبي الضياف ارتبط بزوجته الخامسة حلومة بنت يوسف جعيط وهنا عودة إلى العائلة العريقة (البلدية) والتي سيكون لها –ربما– الفضل في مساعدة مؤرخنا على تسلق سلم الحياة السياسية بنجاح[2] خاصة وان مسألة تعدد زواجه تطرح أكثر من سؤال لا سيما إذا علمنا أن أحمد باي (1837 –

---

[1]- سجن والده الحاج بالضياف والإستيلاء على أملاكه من قبل السلطة سنة 1815 م بعد إغتيال الوزير يوسف صاحب الطابع وكان آنذاك ابن أبي الضياف عمره 13 سنة.

[2]- يشير أحمد جدي إلى أن ابن أبي الضياف تزوج من خمسة نساء وأن أحمد باي كان قد أهداه أمتين وهنا يمكن - من خلال هذه الملاحظة – التطرق إلى مسألة تعدد الزوجات في تونس في القرن التاسع عشر ومسألة علاقة صاحب الإتحاف بالسلطة وكذلك مسألة الرق في عصره .

JDEY (Ahmed), AHMED IBN ABI DHIAF , son oeuvre et sa pensée ... op.cit , p : 48

1855) كان قد أهداه أمتن الأولى اسمها جوهرة الحبشية والثانية فاطمة العلجية. يتضح إذن أن الرجل كان قريبا من محيط السلطة (البايات) ليس فقط من خلال علمه وعمله وإنما أيضا من خلال حياته الزوجية حيث أصبح الرجل جزءا من الخاصة أي الأعيان وهذا ما سيمكنه من الاطلاع أكثر على الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية في تونس القرن التاسع عشر.

يدفعنا هذا التحليل إلى القول بان الواقع الاجتماعي والثقافي في تونس كان المحدد أو لنقل له دورا هاما في تكوين شخصية كاتبنا وفي تفكيره وفي كتابه " الإتحاف"، يعني أن تونس في القرن التاسع عشر والمشاكل التي شهدتها البلاد كلها عوامل دفعت بكاتبنا إلى إنتاج كتابه المشار إليه، فالمدينة هي المحدد لإنتاج الرجل وان كانت له جذور قبلية- ريفية.

يعتبر ابن أبي الضياف من المحظوظين في القرن التاسع عشر إذ قضى تقريبا جل حياته في قصور البايات وكان شاهد عيان عما يجري في الساحة السياسية لكن يبدو أن حياته لم تحظ باهتمام بالغ ودليل ذلك شحة المعلومات المتعلقة به كما أشار إلى ذلك أحمد عبد السلام[1] باستثناء ما جاء في "الرائد التونسي" والورقات الأولى من الجزء الأول من مخطوطة تاريخ ابن أبي الضياف. توفي صاحب الإتحاف سنة 1874م بعد أن ترك لنا كتابا جامعا لمختلف الأخبار المتعلقة بتاريخ تونس في القرن التاسع عشر وحتى قبله وعلاقتها بالدول الأخرى لا سيما الجزائر موضوع عملنا.

2- "الإتحاف" والتقارير الرسمية والدبلوماسية

إن إفرادنا لعنصر خاص بـ"**إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**" ليس مرده أن ابن أبي الضياف لم يكتب سواه وإنما لأنه محور اهتمامنا في هذا العمل المتعلق بصورة الجزائر من خلال المدونة التونسية ومنها "الإتحاف" إذ تشير الدراسات إلى أن آثار ابن أبي الضياف تشمل إضافة إلى الإتحاف المكاتيب التي حررها بأمر من البايات المعاصرين له وأشعار جمع محمد التونسي قسما منها في كتابه " مجمع الدواوين التونسية"[2] وكذلك رسائل، غير أن

[1]- عبد السلام (أحمد)، المؤرخون التونسيون ... مر. س، ص 383.

[2]- عبد السلام (أحمد)، المؤرخون التونسيون ... مر. س، ص409.

الإتحاف يعتبر أهم هذه الآثار، ويشير أحمد عبد السلام إلى وجود مخطوطات متعددة تشمل عادة أربعة مجلدات كبيرة وقد طبع في تونس طبعة أولى في ثمانية أجزاء نشرت بين 1963 و1966، واعتمدت هذه الطبعة المخطوط الذي كان محفوظا بـ"الجمعية الخلدونية" في تونس[1].

هذا لا يعني أن هناك فقط هذه الطبعة بل وجدت ثانية جاءت هي الأخرى في ثمانية أجزاء وهي التي إعتمدناها[2]، وحسب أحمد عبد السلام فإن تحرير الإتحاف دام من سنة 1278هـ / أوائل 1862م إلى سنة 1289هـ / 1872م وهو ما أشارت إليه جل الكتابات التي تناولت موضوع ابن أبي الضياف وكتابه "الإتحاف"[3]، أما عن العنوان فيذكر احمد عبد السلام أن المؤلف أراد في البداية عنونة كتابه بـ"**عقود الجمان**" ثم تطور إلى الاسم الحالي "**إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**" ويضيف أن عبارة "أهل الزمان" هي عبارة تقابل فيها بالمعنى والقافية "عهد الأمان" الذي شارك ابن أبي الضياف في تحريره . هذا العنوان هو عنوان طويل جدا – كما يذهب إلى ذلك أحمد جدي وهو يذكرنا بالإنتاج العربي- الإسلامي الكلاسيكي والحديث وهو ما يعني أن الرجل لم يقطع مع العادات والتقاليد.

تضمن الكتاب دعوة من ابن أبي الضياف لمواطنيه إلى مراعاة " حالة الوقت" و"الملك المقيد بقانون" وهو نظام الحكم المفضل لديه لأنه يجاري العصر.

---

[1]- نسخة مكتبة الخلدونية محفوظة تحت رقم 731 ومختومة بختم " مكتبة الخلدونية " بتاريخ 1319 هـ / 1951 م / نسخة الخلدونية كاملة في أربعة مجلدات : - الرقم : 16640 / الخط : مغربي /المقياس : 20.5 x 31 / تاريخ النسخ : دون تاريخ : أنظر، الإتحاف ....مص .س ، ج 1 الصفحات الأولى المتعلقة بتقديم الكتاب، بقلم خليفة شاطر.

[2]- إبن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان ... مص.س

[3]- محفوظ (محمد)، ابن أبي الضياف حياته نظرات في تاريخه، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس 1983، ط1.

- جدي (أحمد)، أحمد بن أبي الضياف آثاره وتفكيره: محاولة في التاريخ الثقافي، منشورات: مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات (متبعم)، زغوان، جانفي 1996.

كانت الغاية إذن من تأليف "الإتحاف" هي إبراز مزايا الملك الدستوري أو " الملك المقيد بقانون"[1].

يتكون الكتاب[2] من مقدمة طويلة وهو ما يذكرنا بمقدمة ابن خلدون ويعد 1577صفحة من حجم 27 صم x 21 صم ويضم تسعة أجزاء ثمانية منها تحتوي على ثلاثة أفكار أساسية مختلفة ومترابطة: مقدمة طويلة، شرح مواضيع مقترحة للدرس وخاتمة وقدم لنا الجزء التاسع كشافا للأعلام والأماكن والبلدان والأمم والقبائل والمصنفات جاءنا في 202 صفحة. يتناول الكتاب تاريخ تونس العربية-الإسلامية وخاصة التركية – العثمانية والحسينية. كما نلاحظ أن الإتحاف هو كتاب بأجزاء غير متساوية ومحتويات مختلفة وهذا أمر فرضته طبيعة المواضيع المتناولة وربما طبيعة الوثائق والمستندات التي توفرت لابن أبي الضياف من تقارير رسمية ودبلوماسية .

يذكر أحمد جدي أنه "لا نملك تقديما مفصلا للإتحاف رغم مرور 20 سنة على طبعه رسميا ونهائيا بإشراف من الحكومة التونسية وانه لا نملك شرحا دقيقا ومفصلا لأشهر كتاب لابن أبي الضياف" لذلك أخذ على عاتقه مهمة تقديم مفصل ودقيق للإتحاف من خلال محاولته تناول أبعاده ومحتوياته في أجزائه الثمانية رابطا بين ما كتب وبين تفكير وشخصية مؤلفنا.

يندرج هذا الكتاب الذي كتب بين 1862 و1872 ليس فقط في إطار خبرة ومسيرة ابن أبي الضياف ولكن في إطار تطور المجتمع التونسي في فترة ما قبل الاستعمار (القرن التاسع عشر) فهو يحتوي إذن على مسيرة الرجل الإجتماعية والسياسية والثقافية.

من خلال تقديمنا للإتحاف ولابن أبي الضياف نلاحظ أن الكتاب ألفه تونسي من اجل بلده ولكن ذلك لا يخفي حضور دول أخرى أروبية وعربية وإسلامية ضمنها كاتبنا في مؤلفه ولكن حسبنا التذكير بتواتر حضور الجزائر التي ذكرها الرجل 157 مرة موزعة بين الأجزاء الثمانية غير أنها ذكرت لأغراض

---

[1]- عبد السلام (أحمد)، ابن أبي الضياف حياته ومنزلته ومنتخبات من آثاره، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص 20.

[2]- الإتحاف ...مص.س

سياسية عسكرية إذ لم يتطرق ابن أبي الضياف إلى الحياة الإجتماعية أو الإقتصادية كما فعل محمد بيرم الخامس في " الصفوة " وهذا مرده أن الإيالتين متجاورتين ولهما نفس الخصائص تقريبا ومرتا بنفس المحن أيضا (الهيمنة الإسبانية والعثمانية ثم الفرنسية)، ثم إن تاريخ البلدين مشحونا بالتوتر تارة وبالمهادنة طورا مما يفرض حضور الجزائر وان أتت صورتها متفرقة على عكس" **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**" الذي أفرد بابا بأكمله للحديث عن الجزائر التي كانت فاعلة في الأحداث التي شهدتها تونس.

II- محمد بيرم الخامس و"صفوة الاعتبار"

_ 1- بيرم الخامس وأدب الرحلة

ولد محمد بيرم الخامس بعد حوالي ثمانية وثلاثين سنة من ميلاد ابن أبي الضياف أي في فترة شباب صاحب الإتحاف قبل حوالي اثنين وعشرون سنة من بداية كتابته لمؤلفه وكان ذلك بالتحديد في مارس 1840م / محرم 1255هـ، وقد كان والده مهتما بالزراعة مما جعل كاتبنا يرث ثروة معتبرة من الأملاك والعقارات، يظل هذا الثراء المادي نقطة التقاء مع احمد بن أبي الضياف وربما سيكون عاملا من عوامل بروز الرجل. أما أصله فيعود إلى النسب الشريف الذي ينتهي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. هذا النسب الذي ظل محل تقديس من العرب والمسلمين عامة سيكون له الأثر في نحت شخصية الرجل إذ عادة ما تفتخر العائلات بنسبها إلى الأشراف وهو ما يذكرنا بدور الوجاهة التي تحدثنا عنها بخصوص ابن أبي الضياف والتي اعتبرناها عاملا مهما في اندماج الرجل في الوسط المديني / الحضري وفي بروزه كشخصية علمية في تونس القرن التاسع عشر.إنشغل منذ صغره بالعلم ورفض الخطط العسكرية التي كانت في متناوله لأنه يتميز بميله إلى الاهتمام بالشؤون السياسية، أخذ العلم على مشايخ معروفين أمثال شيخ الإسلام الحنفي محمد معاوية والقاضي المالكي الطاهر بن عاشور والشاذلي بن صالح...

نلاحظ من خلال تكوين الرجل أنه نهل من المذهبين المالكي(مذهب السكان الأصليين) والحنفي (المذهب التركي) شأنه في ذلك شأن أحمد بن أبي الضياف وذلك لأن البلاد كانت تحت الهيمنة العثمانية وأن العثمانيين حافظوا على ما

وجدوه من مذاهب وحتى على الترتيب الإداري فأضحت البلاد تعيش في ازدواجية مذهبية.

تكونت لمحمد بيرم الخامس ثقافة واسعة تجمع بين العلوم النقلية التقليدية والتاريخ القديم والحديث كما تلقى تكوينا خارج أسرته في جامع الزيتونة وفي المدارس إضافة إلى تمتعه بمكتبة ثرية تركها له أجداده، ونظرا لوجاهة عائلته فقد كان لبيرم مكانة هامة لدى ساسة العصر وبدأ الرجل يتدرج في سلم المراتب إلى أن أصبح" مدرسا من الطبقة الأولى في رجب 1284هـ"[1] .

لبيرم الخامس علاقة متميزة بالمصلح خير الدين حتى أن هذا الأخير لما تولى زمام أمور الدولة – وزيرا أكبر – مكن بيرم من المشاركة الفعلية في الحياة السياسية، ألا يذكرنا ذلك بابن أبي الضياف وخاصة في علاقته بأحمد باي؟.

إضطلع بيرم في 6 أفريل 1874م/ 17 صفر 1291هـ بمهمة رئاسة جمعية الأوقاف ثم تحصل في 14 جويلية 1875م/1292هـ على إدارة المطبعة الرسمية وإدارة الجريدة التي يصدرها "الرائد الرسمي" وقد غنم هذه المناصب بفضل علاقته المتميزة بخير الدين، كما أشرف على ترتيب المكتبة التي أنشأها هذا الأخير بجامع الزيتونة وهي التي سميت بالمكتبة الصادقية.

وهكذا تعددت نشاطات الرجل وأصبح ذو شأن في البلاد غير أنه في هذه الفترة بالذات بدأت تظهر عليه بوادر مرض عصبي وكان ذلك في صيف 1292هـ / 1875م الامر الذي دفعه إلى السفر إلى أوروبا والمرور بعدة بلدان مثل الجزائر ووصفها وصفا دقيقا[2] إذ أن طريق العودة كان يمر على مدينة عنابة وحصل أن قضى عشرة أيام كاملة في الجزائر وزار عاصمتها وعديد المدن الساحلية منها والداخلية الكبيرة منها والصغيرة وقدم لنا وصفا لا يصفه سوى الرحالة انطلاقا من المرسى الذي نزل فيه وصولا إلى قلب المدينة مرورا بالأزقة والأنهج متناولا أيضا الحياة الاجتماعية في البلد.

---

[1]- عبد السلام (أحمد)، المؤرخون التونسيون ... مر.س، ص448.

[2]- القاسمي (فتحي)، الشيخ محمد بيرم الخامس حياته وفكره الإصلاحي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، قرطاج، طبعة أولى، 1990، ص ص 54 – 55. أنظر أيضا المؤرخون التونسيون ...مر.س.

زار بيرم عديد المدن العربية الأخرى– علاوة على الجزائر- مثل الإسكندرية والقاهرة والمدينة المنورة و بيروت ودمشق وذلك أثناء زيارته البقاع المقدسة ثم زار مناطق أخرى إسلامية مثل اسطنبول أين التقى بصديقه في الماضي خير الدين الذي كان قد غادر البلاد التونسية.[1]

أحس بيرم منذ 1879م بتحسن في حالته الصحية فقرر التفرغ لتحرير الجزئين الأول والثاني من كتاب "**صفوة الاعتبار**" غير أن الأخبار غير السارة التي بلغته والمتعلقة بزحف الفرنسيين على تونس واحتلالها دفعته إلى السفر صحبة أسرته إلى مدينة قرنة بإيطاليا بعد بيع أملاكه ثم استقر في اسطنبول حيث خصص له السلطان العثماني مرتبا شهريا.

ملى بيرم الخامس البقاء هناك فطلب الإذن بالعودة إلى بلاده وكان له ما أراد في 21 ذي الحجة 1301هـ / 12 أكتوبر 1884م ونظرا لما وجده من أحداث ساخنة في تونس عزم على الهجرة إلى مصر وهناك في القاهرة لقي حسن الاستقبال من طرف الخديوي واضطلع ببعض الخطط أهمها حاكما في المحكمة الابتدائية بالقاهرة في 12 جمادى الأولى 1306هـ / 14 جانفي 1889م.[2]

توفي الرجل في 25 ربيع الثاني 1307هـ/ 18 ديسمبر 1889م في حلوان بمصر أي بعد خمس عشرة سنة من وفاة أحمد بن أبي الضياف ليترك لنا كتاب " **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**" الذي يصف فيه البلدان التي زارها وصفا دقيقا.

2 - صفوة الاعتبار وأدب الرحلة

لمحمد بيرم الخامس مؤلفات في علم العروض ورسائل فقهية، إلا أنه رغم تنوع كتاباته يعتبر"صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"[3] من أهم مؤلفاته. يتكون الكتاب من خمسة أجزاء طبع بيرم الأجزاء الأربعة الأولى منه في مطبعته "المطبعة الإعلامية" سنة 1302و 1303هـ /1885م وتكفل ابنه بطبع الجزء الخامس في مطبعة " المقتطف" سنة 1311هـ / 1893 – 1894م وبالاعتماد

---

[1]- نفس المرجع، من ص 54 إلى 56.

[2]- عبد السلام (أحمد)، المؤرخون التونسيون ... مر.س، ص 455.

[3]- هناك عديد الطبعات ولكننا إعتمدنا الطبعة الأولى، مصر 1303 هجري .

على المعلومات التي أوردها ابن المؤلف فإن بيرم الخامس أتم الأجزاء الثلاثة الأولى في سنوات إقامته في اسطنبول (1297 هـ / 1880م - 1302هـ / 1884م) وقد تم تحرير الجزئين الأول (156 صفحة مذيل بـ6 صفحات فيها جداول إحصائية تهتم بالتجارة والسكك الحديدية والديون والخرج والعساكر وعدد السكان لعدد كبير من البلدان العربية والإسلامية والأوروبية والآسيوية والإفريقية والأمريكية دون وجود فهرس للجزء) والثاني (148 صفحة وفي آخره خصصت 3 صفحات للفهرس) قبل احتلال فرنسا لتونس وخصص للحديث عن تونس وعاداتها وتاريخها وأهلها بمختلف أجناسهم ولغتهم وأبنيتهم وعاداتهم في الأعراس والمآتم كما تجول عبر كتابه في مختلف الأقاليم والجزء الثالث (166 صفحة دون فهرس) تناول بالدرس ايطاليا وذكر تاريخها وجغرافيتها وسياستها وعمرانها وعادات وتقاليد أهلها ومجالها العسكري كما يتطرق إلى الحديث عن بومبي (في الهند) بعجائبها وأخيرا يتحدث عن أحوال فرنسا ويذكر لنا باريس بسحرها وما تحتويه من عجائب بعد الاحتلال أي بعد 1881م. أما الجزء الرابع (159صفحة مع 9 صفحات للفهرس) فقد تعرض فيه بيرم إلى الحديث عن أنقلترا والجزائر ومالطة ومصر والحجاز... وأول الجزء الخامس (102 صفحة مذيل بترجمة لبيرم الخامس 76 صفحة مع صفحتين للفهرس) المتعلق بـ"الممالك العثمانية" ومملكة سويسرا ومملكة النمسا والرومانيا واليونان فقد كان تحريرهما في مصر ولم يستطع إكمال آخر الجزء الخامس نظرا لوفاته[1]، وقد اشتمل على قسمين سمي الأول بالمقدمة والثاني بالمقصد: احتوت المقدمة على أكثر من نصف الجزء الأول وهي تضم ثلاثة أبواب بابين قصيرين يذكر فيهما بيرم الخامس حكم السفر في الإسلام أما الباب الثالث من هذه المقدمة فهو طويل جدا لأنه يهتم بجغرافية العالم.

يتضمن المقصد رحلات المؤلف إلى البلدان العشرة التي زارها مقدما لمحة عن تاريخها ويبدأ بترجمة ذاتية للمؤلف تضمنت وصف مرضه ودواعي سفره إلى أوروبا وفيه فصل ثاني تناول فيه المؤلف تاريخ تونس ويتواصل على بقية الجزء الأول وكامل الجزء الثاني من الكتاب.

[1]- عبد السلام (أحمد)، المؤرخون التونسيون ... مر.س، ص456 .

خمسة أجزاء إذن تنقل فيها الشيخ محمد بيرم الخامس بقلمه عبر دول أوروبية وإفريقية وآسيوية وأمريكية[1] وهو ما يعني أنه كتاب جامع وهنا أقول أن كتاب "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" ما كان له ليوجد لولا المرض أو ربما كان سيقتصر على البلاد التونسية فحسب وربما حديثه عن الجزائر – موضوع عملنا هذا – ما كان ليصلنا مكتوبا لولا زياراته لها بحكم مروره عبرها قاصدا فرنسا للتداوي أو ربما كان سيقتصر على ما سمعه حولها كما فعل ابن أبي الضياف.

يمكن القول أن الكتاب – باعتباره خلاصة زيارات الرجل إلى البلدان – يندرج ضمن أدب الرحلة على غرار كتاب الطهطاوي" **تخليص الإبريز في تلخيص باريس**" وهذا الصنف يركز على الحديث عن عالمين للمقارنة: عالم يتحرك وآخر جامد لا يتحرك وهو ما شاهدناه في كتاب صفوة الاعتبار الذي وصفه فتحي القاسمي بالموسوعة لما فيه ذكر لكل " **شاردة وواردة**"[2]

احتوى الباب المخصص للجزائر على تسعة عشر صفحة[3] قدم فيها بيرم معلومات حول تاريخ الجزائر ووصف مدنها وموانئها وجوامعها وأهلها وعاداتهم وتقاليدهم[4] مقارنا بين الريف والمدينة ومدى تأثر الجزائريين بالفرنسيين.

إذا ما دققنا في أسلوب محمد بيرم الخامس في الكتابة من خلال تصفحنا " للصفوة " نلاحظ انه اتبع الطريقة التقليدية والتي عادة ما يستعملها الرحالة وهذا ما جعلنا نقول أننا أمام رحالة. التقت إذن شخصية الرحالة مع شخصية المؤرخ لتفرز لنا كتاب "**صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**"، كما نلمس تمشيا منهجيا محكما أضفى على كتاباته تسلسلا يجعلك تطوق إلى الصفحات الموالية مع وجود كثير من التشويق ربما اعتمده الرجل للترغيب في الاطلاع على مؤلفه، ففي البداية يذكر دواعي السفر- مما يجنبك عناء السؤال عن سبب الزيارة - وكيفية السفر والوسائل التي استعملها للوصول إلى البلد المقصود

---

[1]- الخامس (محمد بيرم الخامس)، صفوة الإعتبار ... مص.س، ج 1

[2]- القاسمي (فتحي)، الشيخ محمد بيرم الخامس ... مر.س، ص 67.

[3]- (الخامس) محمد بيرم، صفوة الاعتبار ... مص.س، ج 4 ، من ص 2 إلى 21.

[4]- نفس المصدر، ج 4، ص 2 – 21..

ثم تاريخ الوصول إليه موردا في كثير من الأحيان تواريخ دقيقة وهذا يظفي على شخصيته جانب المؤرخ، ثم يصف البلد الذي حل به وجغرافيته والحياة الاجتماعية السائدة فيه- من عادات وتقاليد- والاقتصادية، كما يتطرق إلى مستعمرات القطر إن كانت له مستعمرات ويقدم لمحة عن تاريخه القديم والحديث انطلاقا من النظام السياسي الذي كان سائدا فيه مركزا دوما على علاقة البلد بالخلافة العثمانية وبالبلاد الإسلامية ثم يورد أخبارا عن الزراعة والتجارة والصناعة والأخلاق والعادات والتعليم واللغة والقوة العسكرية والثروة المالية وعادة ما يقارن المؤلف البلد الذي زاره بالأوضاع في بلاد الإسلام والهدف هو الاعتبار وهذا واضح من خلال العنوان في حد ذاته ولعل ذلك دليل على غيرة الرجل على بلاد الإسلام والنزعة الإسلامية في شخصيته[1].

اعتمد محمد بيرم الخامس – علاوة على ما شاهده أثناء زياراته للبلدان والأقطار- كتبا أخرى ومقالات خاصة الكتب الجغرافية ومقالات الصحف التي طالعها ومن أكثر ما كتب كان طبقا لما شاهده هو أي أنه اعتمد أساسا على زياراته الميدانية لذلك يمكن تصنيف الرجل ضمن قائمة الرحالة، ومن أهم المصادر التي اعتمدها بيرم في "الصفوة" هو ما خطه الوزير ابن أبي الضياف[2] وهو ما يعني أن الرجلين يكملان بعضهما البعض ولعل الثاني يكمل الأول باعتبار أنه ولد ليجد ابن أبي الضياف يبلغ من العمر ثمانية وثلاثون وتوفي بعد خمس عشرة سنة من وفاته، لكن ليس هذا ما يهمنا بقدر ما يهمنا التكامل بين المصدرين "الإتحاف" و"الصفوة " من أجل رسم صورة الجزائر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .كما اعتمد بيرم أخبارا ذكرها بعض "الثقات" أو السائحين وبعض الكتابات الأخرى مثل كتاب رافع الطهطاوي " **تخليص الإبريز في تلخيص باريس**"[3] وكتاب "**جغرافية مصر**" لأحمد أمين فكري[4] وكتاب "**كشف المخبأ في فنون أوروبا**" لأحمد

---

[1]- (الخامس) محمد بيرم، صفوة الاعتبار ... مص.س، الأجزاء الأربعة الأولى

[2]- نفس المصدر، ج 2، ص 33

[3]- عبد السلام (أحمد)، المؤرخون التونسيون ... مر. س، ص 459.

[4]- صفوة الاعتبار .. مص.س، ج 4 ص 96، أنظر أيضا المؤرخون التونسيون ...مر.س، ص 459 والشيخ محمد بيرم الخامس ... مر.س ص92

فارس الشدياق وكتاب خير الدين "**أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك** "[1] . يدل هذا التعدد في المصادر على مدى إطلاع الرجل ولكن ما يعاب عليه هو الاعتماد على المصادر الشفوية التي لا يمكن الوثوق بها بصفة مطلقة .

III- صورة الجزائر في الإتحاف والصفوة

سنطرق في هذا العنصر الى صورة الجزائر في القرن التاسع عشر ونتتبع أهم التحولات التي شهدا هذا البلد سواء في علاقاته مع بقية الدول لاسيما المتوسطية أو الامبراطورية العثمانية والتأرجح بين سعي هذه الايالة فرض استقلالية تجاه الباب العالي وسعي هذا الأخير بسط النفوذ ولو معنويا حيث تميزت العلاقة بين الطرفين باستقلالية ولو محدودة لأن الجزائريين ظلوا محكومين بفكرة أنهم هم من إستنجدوا بالعثمانيين لحمايتهم من الخطر المسيحي المتمثل آنذاك في الهجوم الاسباني سنة 1519 م[2] بينما ساد التوتر حينا والهدوء حينا آخر علاقاتها مع تونس إذ سعت الجزائر إلى التدخل في شؤون جارتها لاسيما أثناء الفتنة الباشية – الحسينية، كما تصرفت مع البلدان الاوروبية بمنطق البلد المستقل وليس التابع للامبراطورية العثمانية وذلك من خلال إعلانها للحروب وإبرامها لاتفاقيات الصلح دون الرجوع الى الباب العالي، كما سنتطرق إلى صورة المدينة الجزائرية في هندستها المعمارية ووظيفتها ودورها في مجريات الأحداث خاصة من خلال " صفوة الإعتبار " ثم سننفذ من خلال ذلك إلى دراسة صورة المجتمع الجزائري ودوره في الحياة الإقتصادية .

1- علاقة الجزائر بالإمبراطورية العثمانية

تعتبر علاقة الإمبراطورية العثمانية بالجزائر مختلفة عن علاقتها ببقية الإيالات، فالجزائر كما يشير إلى ذلك عبد العزيز محمود لعرج في كتابه "**الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي**" هي البلد العربي الإسلامي الوحيد الذي لم ينضو تحت حكم الدولة العثمانية بالقوة العسكرية[3] وهذه العبارة

---

[1]-القاسمي (فتحي) الشيخ محمد بيرم الخامس ... مر.س، ص 92. انظر أيضا المؤرخون التونسيون ... مر.س، ص 459.

[2]-لعرج (عبد العزيز محمود)، الزليج في العمارة الاسلامية بالجزائر في العصر التركي دراسة أثرية فنية، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ص 12.

[3]- نفس المرجع، ص 12.

تلخص ما سنذهب إليه عند تصفحنا لهذه العلاقة في "الإتحاف" و" الصفوة" باعتبار أن المصدرين هما ركيزة عملنا ومنطلقه واستخراج جميع الأحداث التي تؤكد ما ذهبنا إليه وقد تناول هذا الموضوع باطناب كبير صاحب الإتحاف بينما تجاهله محمد بيرم الخامس.

أ- إدارة مستقلة عن القرار العثماني

لم يتطرق محمد بيرم الخامس باطناب الى هذه المسألة لأنه ركز على ما كان يشاهده لدى زيارته للجزائر ولئن إعتمد على بعض الكتابات لتقديم بسطة صغيرة عن تاريخ الجزائر السياسي إلا أنه ركز على وصف الحياة الإجتماعية.

رغم الظرفية التي مهدت إلى الدخول العثماني في الجزائر والتي جعلت الجزائريين يشعرون بأنهم ليسوا تحت إحتلال السلطنة، ظلت الإمبراطورية تتعامل مع الجزائر كأنها تابعة تبعية مطلقة لها شأنها في ذلك شان بقية الإيالات ومظاهر هذه التبعية حاضرة في الإتحاف إذ أورد صاحبه أن جند الجزائر كان دائم الحضور في الجيش العثماني وهي طريقة دأبت على إتباعها الإدارة العثمانية لتحسيس البلدان "المفتوحة" بأنها تابعة[1]، وقد كانت السلطنة حذرة في تعاملها مع هذا البلد إذ طلبت جنوة في سنة 1740 م جزيرة طبرقة من السلطان العثماني ليتخذوا منها أبنية من خشب للاحتماء بها من الحر والمطر في موسم صيد المرجان في بحرها ووافقهم هذا الأخير ولكن بعد استشارة كل من صاحب تونس وصاحب الجزائر نظرا لوجود الجزيرة بين بونة[2] وبنزرت[3] وفي هذه الاستشارة أكثر من معنى إذ لو كانت الإمبراطورية مقتنعة شديد الاقتناع بأنها تهيمن على الجزائر لتصرف السلطان دون الرجوع إلى الجزائريين .

---

[1]- تعيين سنان باشا رمضان بن حسين التركي من جند الجزائر أمير لواء في تونس أثناء حملته عليها واجتثاث حكم بني حفص سنة 1573م واعتقال محمد بن الحسن الحفصي.

[2]- بونة هي عنابة

[3]- ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان ... مص.س، ج 2، ص 124.

نلمس هذا الاقتناع بالتبعية المحدودة في الفتنة الباشية - الحسينية[1] بالخصوص عند مساندة محلة الجزائر لأولاد الباي حسين بن علي محمد وعلي من أجل افتكاك السلطة من علي باشا وتمت السيطرة على هذا الأخير واعتقاله من قبل حسن باي الذي أرسل بكتاب إلى صاحب الجزائر وهو آنذاك برمق سز سنة 1756م يبشره بالنصر ويخيره بين الاستيلاء على المملكة وضمها لمملكة الجزائر ويأتيه بالباشا وابني عمه (محمد وعلي) أو ترك البلاد لصاحبها علي باشا على أن يلزمه بدفع ضريبة سنوية للجزائر فكان جواب صاحب الجزائر: "إن الأوجاق الثلاثة – تونس والجزائر وطرابلس- من ممالك السلطنة العلية العثمانية ونحن على طاعتها ولو صحت هذه الضريبة من المال في الإسلام يكون سلطان المسلمين أولى بها ونحن عبيد طاعته"[2] ويضيف صاحب الإتحاف: "***وأمره بقتل علي باشا ودفعه لبني عمه***" . تصرف صاحب الجزائر إذن إزاء هذه الحادثة تصرفين متناقضين: الأول يوحي بتبعية للإمبراطورية العثمانية وقد صرح بذلك جهرا في رد الجواب المشار إليه عندما قال في إشارة إلى الإمبراطورية:" ***ونحن على طاعتها*** "ولكنه يأمر في نفس الجواب بقتل علي باشا في تصرف مستقل عن السلطنة، كما يشير ابن أبي الضياف إلى وجود وكيل للجزائر في تونس[3] والوكيل عادة ما يمثل دولة مستقلة وهذا الوكيل هو الحاج محمد البرادعي وكان ذلك في عهد حمودة باشا ثم إنه لما أقدم هذا الأخير على قطع نذر كان يقوم به والده لما كان في الجزائر تمثل في بعث شيء من الزيت إلى مقامات الصالحين تقدم صاحب الجزائر آنذاك بشكاية إلى الدولة العثمانية[4] وهذه الشكاية رغم أنها في ظاهرها تبدوعادية باعتبار أن الجزائر هي " نيابة" عثمانية إلا أنها تبطن خلفية تمثلت في اقتناع ولو جزئي من صاحب الجزائر بأنه في حماية الإمبراطورية العثمانية حتى لو أحس أن تبعيته محدودة، ثم إن السلطنة العثمانية سرعان ما استجابت لنداء

---

[1]- الشريف (محمد الهادي)، ماذا يجب أن تعلرف عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الإستقلال، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة، دار سيراس للنشر، تونس، 1980. ص 86.

[2]- ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان ... مص.س، ج2، ص 153

[3]- نفس المصدر، ج3،ص84.

[4]- " إن صاحب تونس كان يبعث مقدار من الزيت لإعانة عسكر المسلمين بالجزائر والآن ابنه امتنع "، المصدر نفسه، ج3، ص76.

صاحب الجزائر إيمانا منها هي الأخرى بأنها الحامي للجزائريين والتونسيين وبقية البلدان المفتوحة أيضا وقد كان لهذه الاستجابة من الحنكة السياسية الشيء الكثير إذ بعث السلطان رسولا مخصوصا في النازلة من أهل القلم بمكتوب يحرض فيه على وصل الأخوة الإسلامية بالتعاون على البر[1] وكأني بالسلطان العثماني أراد تذكير الجزائريين والتونسيين على حد السواء بضرورة تطبيق المبادئ الإسلامية إذ أن الإمبراطورية العثمانية نصبت نفسها حامية الإسلام والدول الإسلامية من الخطر المسيحي سواء كان الإسباني، الإيطالي أو الفرنسي بعد ذلك.

وفي الحقيقة فإن هذه التبعية تحضر وتغيب حسب مصلحة الجزائر وكأني بها أصبحت تحالفا وليست تبعية أي أن صاحب الجزائر عندما يطلب العون من الإمبراطورية العثمانية فإن مرده الروابط الإسلامية بين البلدين وليست علاقة تابع بمتبوع الأمر الذي يدركه على ما يبدو العثمانيون جيدا، فالتصرف العثماني تجاه الجزائر يختلف عن تصرفها تجاه تونس ويتجلى ذلك بوضوح عندما تدخلت الإمبراطورية لعقد الصلح بين البلدين الجارين في 20 مارس 1821 ولعبت في هذا التدخل دور الوسيط وليس دور الآمر فكأنما أرادت أن تآخي بين جارتين مسلمتين.

ظلت إذن الإمبراطورية العثمانية تراقب من بعيد الجزائر فهي من حين لآخر تذكر الجزائريين بأنها تحميهم وتلمح لهم بأنهم تابعين وطورا تغض الطرف عن بعض ما يحصل في الساحة وحتى العلاقات الخارجية الجزائرية لم تكن بمنأى عن القرار العثماني ولكنه تدخل محدود ولعل حادثة منشة الذباب والتي كانت سببا – ولو من بين أسباب أخرى – في اندلاع الحرب بين الجزائريين والفرنسيين واحتلال الجزائر كانت توحي بنهاية هذه التبعية المحدودة. وملخص الحادثة أ قنصل فرنسا كلفته بلاده بالفصل في نازلة أحد أعيان اليهود من الجز يس اسمه بكري بوجناح الذي كانت له تجارة مع أهل فرنسا في القمح، تدخل صاحب الجزائر حسين باشا وآل الأمر إلى الصلح بين الفريقين ولكن استظهر تجار آخرون من الفرنسيين بدين على بكري عرقلوا "*بمقتضاه دراهم الصلح حتى يقع الخلاص*"[2]

---

[1]- ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان ... مص. س، ج3، ص74

[2]- ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان ... مص. س، ج 3، ص 164 .

ونظرا لكون الباشا طمع في الاستيلاء على تلك الأموال فقد كلم القنصل الفرنسي طالبا منه "***رفع التعرقيل***"[1] إلا أن جواب القنصل لم يرضه فكاتب الدولة الفرنسية التي كلفت القنصل بالإجابة باعتباره ممثلا لها في الجزائر ومعني بحماية الرعايا الفرنسيين وتنظيم العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين، فهم صاحب الجزائر من هذا التصرف أنه تجاهل له واحتقار ولما أتاه القنصل في غرض من الأغراض لم يفصح عنه ابن أبي الضياف سأله عن تجاهله من قبل الدولة الفرنسية فاعتذر القنصل بكلام فهمه حسين باشا على كونه احتقار له وكانت بيده منشة يطرد بها الذباب :" ***فضربه بها على وجهه*** "[2] ثم شتمه وطرده، كاتب القنصل دولته وحدثها بالأمر فطلبت من صاحب الجزائر الاعتذار إلا أنه رفض بل وأطرد رسولا بعثت به فرنسا إليه، وهو ما دفع بفرنسا إلى الاستعداد للحرب.

ينم هذا التصرف الفردي من حسين باشا صاحب الجزائر عن وعي بالاستقلالية في القرار إذ لم يعد بالمشورة إلى الباب العالي باعتبار تشابك مصالح الطرفين بل تعمد تجاهل القرار العثماني، لكن هذا التجاهل قابلته فرنسا بحنكة سياسية تمثلت في إبلاغ السلطنة العثمانية بما حصل وبما سيحصل (أي الحرب) وفي هذا وعي تام من الفرنسيين بمسؤولية الطرف العثماني – سواء كانت هذه المسؤولية محدودة أو مطلقة – عما يحدث في الجزائر وربما كانت فرنسا تقصد بهذه المشورة الطلب من السلطان العثماني تأديب ممثله أو نائبه في الجزائرالتي تعتبر ولاية عثمانية في نظر الأمم المسيحية لأن الفرنسيين لن ينسوا ما أقدمت عليه الإمبراطورية من مد يد المساعدة للجزائر في حربها ضد الإسبان في القرن 16م ومحاولتها حماية إيالاتها الثلاث في المغرب: تونس والجزائر وطرابلس من أي خطر مسيحي حتى وإن كانت الغاية هي حماية الإسلام من الخطر الخارجي فإن الديني قد امتزج بالسياسي في هذه المرحلة.

كاتبت فرنسا إذن الدولة العثمانية وأبلغت السلطان أنه إن لم يتدخل فإنها "**ستطلب حقها بنفسها**"[3] وبذلك لا يكون الفرنسيون قد تعدوا على مقام

---

[1]- المقصود التدخل وحل مسألة التجار الفرنسيين الذين أكدوا أن لهم دينا على بقري. نفس المصدر، ج3، ص 164.

[2]- المصدر نفسه، ج3، ص 164.

[3]- ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان ... مص.س، ج3، ص165.

ونظرا لكون الباشا طمع في الاستيلاء على تلك الأموال فقد كلم القنصل الفرنسي طالبا منه "***رفع التعرقيل***"[1] إلا أن جواب القنصل لم يرضه فكاتب الدولة الفرنسية التي كلفت القنصل بالإجابة باعتباره ممثلا لها في الجزائر ومعني بحماية الرعايا الفرنسيين وتنظيم العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين، فهم صاحب الجزائر من هذا التصرف أنه تجاهل له واحتقار ولما أتاه القنصل في غرض من الأغراض لم يفصح عنه ابن أبي الضياف سأله عن تجاهله من قبل الدولة الفرنسية فاعتذر القنصل بكلام فهمه حسين باشا على كونه احتقار له وكانت بيده منشة يطرد بها الذباب :" ***فضربه بها على وجهه*** "[2] ثم شتمه وطرده، كاتب القنصل دولته وحدثها بالأمر فطلبت من صاحب الجزائر الاعتذار إلا أنه رفض بل وأطرد رسولا بعثت به فرنسا إليه، وهو ما دفع بفرنسا إلى الاستعداد للحرب.

ينم هذا التصرف الفردي من حسين باشا صاحب الجزائر عن وعي بالاستقلالية في القرار إذ لم يعد بالمشورة إلى الباب العالي باعتبار تشابك مصالح الطرفين بل تعمد تجاهل القرار العثماني، لكن هذا التجاهل قابلته فرنسا بحنكة سياسية تمثلت في إبلاغ السلطنة العثمانية بما حصل وبما سيحصل (أي الحرب) وفي هذا وعي تام من الفرنسيين بمسؤولية الطرف العثماني – سواء كانت هذه المسؤولية محدودة أو مطلقة – عما يحدث في الجزائر وربما كانت فرنسا تقصد بهذه المشورة الطلب من السلطان العثماني تأديب ممثله أو نائبه في الجزائرالتي تعتبر ولاية عثمانية في نظر الأمم المسيحية لأن الفرنسيين لن ينسوا ما أقدمت عليه الإمبراطورية من مد يد المساعدة للجزائر في حربها ضد الإسبان في القرن 16م ومحاولتها حماية إيالاتها الثلاث في المغرب: تونس والجزائر وطرابلس من أي خطر مسيحي حتى وإن كانت الغاية هي حماية الإسلام من الخطر الخارجي فإن الديني قد امتزج بالسياسي في هذه المرحلة.

كاتبت فرنسا إذن الدولة العثمانية وأبلغت السلطان أنه إن لم يتدخل فإنها "**ستطلب حقها بنفسها**"[3] وبذلك لا يكون الفرنسيون قد تعدوا على مقام

---

[1]- المقصود التدخل وحل مسألة التجار الفرنسيين الذين أكدوا أن لهم دينا على بقري. نفس المصدر، ج3، ص 164.

[2]- المصدر نفسه، ج3، ص 164.

[3]- ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان ... مص.س، ج3، ص165.

الإمبراطورية ولا رافضين لشروطها وقد تصرفت الإمبراطورية في هذه النازلة بتصرف الآمر الذي رأى في الجزائر تابعة له حيث حاولت خلع الباشا صاحب الجزائر المتسبب في هذه الأزمة إذ أرسل السلطان طاهر باشا إلى تونس ليتوجه برا إلى الجزائر للقيام بمهمة خلع الباشا ولكن استحال الأمر نظرا لعدم السماح له بالمرور إلى الجزائر من طرف باي تونس آنذاك[1]، يوحي هذا التصرف بأن الإمبراطورية العثمانية تحكم قبضتها على الجزائر ولكنها تأخذ احتياطاتها في التعامل مع هذه النيابة.

ب- العلاقات الخارجية للجزائر

إضافة إلى العلاقة بين الجزائر وتونس التي أشرنا إليها لم يهمل المصدرين علاقة هذا البلد ببقية البلدان الأخرى ولقد أردنا البحث والتعمق في هذا الأمر من أجل استجلاء معالم الاستقلالية التي أظهرتها نيابة الجزائر تجاه الإمبراطورية العثمانية وهو ما أشار إليه ابن أبي الضياف في "**الإتحاف**" الجزء الثالث عند حديثه عن حرب الفرنسيين للجزائر في ماي 1830م وهو نفس ما أشار إليه محمد خير فارس في كتابه "**تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي** ".

كانت تحكم العلاقات بين هذين البلدين مصالح متمثلة أساسا في نشاط القرصنة والأسرى والتجارة خاصة إذا علمنا أن القرن 16 شهد تعاونا تركيا جزائريا فرنسيا في مجال القرصنة غير أن الجزائر استطاعت التخلص من الهيمنة العثمانية وحررها منها مما جعلها تطلق يدها في المتوسط .

تفكر الجزائر إذن في المصلحة الداخلية دون ربطها بالمصلحة العثمانية غير أن هذا التنافس الفرنسي– الجزائري حول المتوسط أدى إلى حصول صدامات بين سفن البلدين وفي بعض الأحيان اتصالات دبلوماسية أو حروب . عبارة اتصالات دبلوماسية تعد خير دليل على استقلالية الجزائر تجاه الباب العالي إذ

[1]- نفس المصدر، ج3، ص 166.

تحدثت الكتابات عن تصرف مستقل من الجزائريين تجاه فرنسا، كما أبدت الجزائر استقلالية واضحة في تفاوضها مع فرنسا بشأن الأسرى[1].

تميزت العلاقات الجزائرية – الإسبانية هي الأخرى بالتوتر والصراعات وهو ما أشار إليه ابن أبي الضياف في "**الإتحاف**" ومحمد بيرم الخامس في "**صفوة الاعتبار**"[2] بخصوص احتلال عدد الموانئ الجزائرية وهجومات الإسبان المتكررة على الجزائر في 1783 و1784م وتصدي الجيش الجزائري لها، دفع هذا التصدي الإسبان إلى المفاوضات من أجل الصلح سنة 1785م قبله الجزائريون بشروط تمثلت أساسا في دفع مبلغ مالي هام وإخلاء وهران والمرسى الكبير[3] ولم تذكر لنا الكتابات تدخلا عثمانيا في هذا الصلح وما مساعدة الأتراك الجزائريين في هذه المواجهات إلا بدافع الشعور بالاشتراك في المصير الديني.

تتضح هذه العلاقات التي أقامتها الجزائر بمعزل عن العثمانيين بصفة خاصة في الميدان التجاري حيث كانت مقرا للعديد من التجار من مختلف الأمم الأوروبية وهذا نابع عن حرص هذه الدول على مواصلة علاقاتها التجارية مع هذا البلد، وتتحدث الكتابات والدراسات على صادرات الجزائر مستعملة مصطلح "الجزائر" عوضا عن مصطلح "الإيالة " أو "النيابة "بما في ذلك بيرم الخامس وابن أبي الضياف وحتى في استعمال مصطلح "نيابة" عوضا عن "إيالة" ففيه نبرة استقلالية باعتبار أن السلطنة العثمانية اعتبرت خير الدين " نائبا " عنها بكلربك وليس تابعا لها.

ساد التوتر العلاقة مع أنقلترا خاصة بعد 1807م عندما تزعمت هذه الأخيرة حملة معادية للجزائر في مؤتمر فينا 1814م وبقية المؤتمرات التي تلته ومن أبرز بنود المؤتمرالمطالبة بتحرير القرصنة والاستقرار في النيابات.

---

[1]- مسألة فدية الأسرى مثل هايدو الذي ألف كتابا عن الجزائر والشاعر الإسباني فيجيل دي سيرفانتس، ورد بكتاب "تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي"، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1979 لمحمد خير فارس.

[2]- الخامس (محمد بيرم)، صفوة الإعتبار ...مص.س، ج 4، ص 7.

[3]- تم تحرير وهران والمرسى الكبير في 1792م.

أعادت أنقلترا في مؤتمر اكس لا شابال 1818م عرض مشروعها وفي سنة 1819م توجهت قوة بحرية فرنسية – بريطانية لإبلاغ الداي قرارات المؤتمر لكنه رفض التحذير مؤكدا أن من حقه تفتيش كل السفن وهكذا فشلت المهمة.

ج- حروب الجزائر

تعد الحروب التي أقامتها الجزائر دون استشارة العثمانيين من أبرز الأدلة على هذه التبعية المحدودة أو هي التبعية التي تتأرجح بين الاستقلالية والطاعة الجزئية أو المرتبطة بظرفية معينة ذلك أن الجزائر – التي تحكمها فكرة أنها هي من استنجدت بالقوة العثمانية بناء على طلب من خير الدين – حرصت على تحسيس الأتراك بأن لها كلمتها في المنطقة وأرادت أن تفرض هذا المنطق من خلال الحروب خاصة مع جارتها تونس وتدخلها المستمر في إذكاء نار الفتنة الباشية – الحسينية[1] فابن أبي الضياف وبيرم الخامس تحدثا عن هذه الحروب والباحث وراء السطور يستشف هذه النزعة الاستقلالية إذ عادة ما يقدم التابع على استشارة المتبوع في كل القرارات وهذا ما لم يحصل مع الجزائريين في القرنين 18م و19م ولو في علاقتها مع الدول الأخرى مثل فرنسا وأنقلترا. وفي الحقيقة فإن الصراع بين تونس وجارتها يجد جذوره حتى قبل انتصاب العثمانيين بالجزائر عام 1519م. كما يظهر هذا الاستقلال المحدود في الدور الذي لعبته المدينة الجزائرية في حماية الهاربين من تونس زمن الفتنة[2] .

أقدمت الجزائر إذن على القيام بحملات عسكرية على تونس مثل حملة شعبان خوجة صحبة صاحب طرابلس على محمد باي بناء على تحريض من محمد بن شكر الذي هرب من الباي إلى الجزائر والذي أوحى له بأن محمد باي يريد الجزائر وطرابلس والتي انتهت بهزيمة محمد باي سنة 1105هـ / 1694م[3] .

---

[1]- الشريف (محمد الهادي)، ماذا يجب أن تعرف ... مر.س، ص 84

- أنظر أيضا : إبن محمد بن عبد العزيز (حمودة)، الكتاب الباشي، تحقيق الشيخ محمد ماضور، الدار التونية للنشر، ج 1، 1970، ص 47

[2]- ابن أبي الضياف (احمد)، إتحاف أهل الزمان ... مص.س، ج 2، ص ص 111 – 113 – 130 – 140 ...

[3] نفس المصدر، ج 2، ص ص 63- 64- 66.

تواصل هذا التصادم في عهد مراد باي ونذكر خاصة الحملة التي التقى فيها الجمعان (صاحب الجزائر من ناحية ومراد باي من ناحية ثانية) في قسنطينة في محل يعرف بجوامع العلماء في السابع عشر من ربيع الثاني 1112هـ / الجمعة أكتوبر 1700م[1] .

لا يهمنا نحن في هذا العمل سرد هذه الصراعات والمواجهات بقدر ما يهمنا إعلان الجزائريون للحروب دون استشارة العثمانيين حيث لم يذكر ابن أبي الضياف ولامحمد بيرم الخامس تدخلا أو أمرا صدر من الباب العالي بالرغم من أن الجزائر كانت في ذلك الوقت إيالة عثمانية، وفي نفس الوقت لا يهمنا إن تلقت تونس أوامر عثمانية أم لا لأن ما يعنينا هنا الجزائر بالأساس. والملاحظ في الحروب الجزائرية- التونسية أن مدينتي الكاف من الجانب التونسي وقسنطينة من الجانب الجزائري لعبتا دورا هاما في هذه المواجهات باعتبار أنهما ظلتا المدينتان الأكثر عرضة للاعتداء والمواجهة وربما يعود ذلك إلى أن الطريق التي عادة ما تسلكها المحال تمر بهاتين المدينتين الحدوديتين.

تواصلت المواجهات زمن إبراهيم الشريف وأيام صاحب الجزائر عشي مصطفى سنة 1117هـ / أفريل 1705م وكانت مدينة الكاف ساحة الصراع كالعادة وتقدم صاحب الجزائر خلال هذه الحروب بشروط لإنهاء الحرب تمثلت أساسا في خلاص مقدار من المال وألف بعير.

ما يهمنا في هذه الحرب ليس أطوارها أو نتائجها وإنما تلك الشروط التي فرضها صاحب الجزائر وكذلك قرار إنهاء الحرب الصادر من الجزائر وليس من العثمانيين لأنه من المتعاهد عليه أن تتدخل الإمبراطورية العثمانية باعتبار أن الحرب كانت بين إيالتين تابعتين لها ثم أنه كان من المفروض أن تدفع الأموال الناجمة عن صلح ما إلى السلطنة وليس إلى الجزائر ولكن عندما يفرض صاحب الجزائر شروطه فهذا يعني إيمانا منه باستقلالية بلده ولو جزئيا وأن التبعية روحية فقط .

[1] نفس المصدر، ج 2، ص 76.

استمر هذا التدخل في تونس في عهد الدولة الحسينية حيث تحركت محلة الجزائر زمن حكم حسين بن علي[1] من الكاف أين كانت تتمركز باتجاه تونس رغم الإغراءات التي قدمها الباي حسين والمتمثلة أساسا في المال درءا للقتال، وكانت هذه المحال – زمن عشي مصطفى - تخرب وتنهب المدن، يحصل كل هذا تحت مراقبة السلاطين العثمانيين من مركز الخلافة ولعل هذا ما لخصه يوسف صاحب الطابع أثناء زيارته للقسطنطينية[2] عندما لامه السلطان العثماني سليم خان[3] على التأخير في تهنئته حيث قال : " إن الحروب بين تونس والجزائر بمرأى منكم ومسمع ..."[4].

حادثة أخرى وردت في "**الإتحاف**" في الجزء الثالث منه عندما تحدث ابن أبي الضياف عن تواطؤ وكيل الجزائر بتونس مع حمودة باشا من أجل التخلص من حسين باي بن إسماعيل بن يونس باي الذي توفي أبوه بالجزائر، هذه الحادثة وإن كانت مهمة في تاريخ العلاقات التونسية – الجزائرية إلا أن ما يلفت الانتباه فيها هو وجود وكيلا للجزائر في تونس وعادة ما يقوم الوكيل بتنظيم العلاقات بين البلدين وبمتابعة رعايا البلد في الخارج وهو ما يعني أن الجزائر بلدا مستقلا في الحقيقة عن الإمبراطورية العثمانية - ولو سياسيا فقط- فلو قارنا وضعه بوضع البلاد التونسية لرأينا أن هذه الأخيرة أكثر تبعية والتصاقا بالسلطنة وهو ما يؤكده تصرف الجزائر في الحروب[5] وفي إبرام الصلح أيضا وهو ما يدعمه

---

[1]- 1705 م – 1735 (في 1740 م تم قطع رأس حسين بن علي بعد هزيمته على يد ابن أخيه هلي باشا الذي ثار عليه نتيجة إبعاده عن المسؤوليات بتمكينه من وظيفة باشا واسناد وظيفة ولي عهد إلى أحد أبنائه) . ورد في كتاب إتحاف أهل الزمان ... مص.س، ج 2، من 106 إلى 116. أنظر أيضا : " ماذا يجب أن تعرف عن تاريخ تونس ... مر.س ، ص 84.

[2]- 1209هـ / ماي، جوان 1795م.

[3]- ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان ... مص.س، ج 3، ص 29.

[4]- نفس المصدر، ج 3، ص 29.

[5]-يقول الوزير السراج متحدثا عن الحرب بين أحمد والأخوين محمد باي وعلي باي : " ...وأتى قوم الجزيريين يزحفون بخيلهم ورجلهم..."، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1 م 2، 1984، ص ص 518 - 520 – 523 – 525. وفي . بخصوص التدخل الجزائري في الفتنة الباشية –

ابن أبي الضياف الذي ذكر أن الجزائريين نكثوا صلحا منعقدا في 1232هـ / 1816م مما دفع بتونس إلى الاستعداد للحرب[1]، ولئن تدخلت الإمبراطورية العثمانية في هذه الحادثة إلا أن ذلك كان من باب السعي إلى الصلح بين البلدين[2] وهو ما يعني أن الدولة العلية العثمانية تدخلت بواسطتها وسيطا لتجنيب المؤمنين " ***شر القتال*** " والعبارة لابن أبي الضياف. كان يحرك هذا التدخل الوازع الديني الذي غالبا ما كانت الإمبراطورية العثمانية تستعمله وسيلة لإثناء الجزائر عن عمل ما.

تظهر هذه النزعة الاستقلالية جلية أثناء حرب الجزائريين مع الفرنسيين (1245 هـ / 1860 م) التي أتهم فيها الباي التونسي بالتواطؤ مع فرنسا حيث لاحظنا غيابا تاما للحضور العثماني عن الأحداث إذ تتصرف الجزائر في مواجهتها للفرنسيين وكأنها دولة مستقلة.

2- هندسة ووظيفة المدينة في الجزائر:

لا نستطيع تناول تاريخ الجزائر في القرنين 18 و19م دون التطرق إلى المدينة الجزائرية التي فرضت وجودها في الكتابات وفي الأحداث فقد تميزت بهندسة ووظيفة دفعت بالعديد من المصادر إلى تناولها، ولعل ما يهمنا نحن في هذا العمل هو المصدرين الذين من خلالهما نبحث في صورة الجزائر وهما " **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان** " لأحمد بن أبي الضياف و" **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**" لمحمد بيرم الخامس، ولئن سكت الأول في إتحافه عن وصف المدينة الجزائرية – وهذا ناتج عن عدم زيارة الرجل للجزائر إذ اكتفى كما سبق وأن ذكرنا بالتعامل مع التقارير الرسمية انطلاقا من وضعه ككاتب في البلاط – فإن الثاني لم يفوت فرصة وصفها وهذا مرده زيارته لها فكان وصفه وصفا دقيقا بداية من المرسى الذي نزل به وصولا إلى أزقة وأنهج المدن فكان بذلك مكملا لابن أبي الضياف في تناوله لجغرافية الجزائر.

الحسينية أنظر أيضا : أبن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، دار المسيرة، لبنان، ط 3، 1993، ص 295.

[1]- ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان ... مص.س، ج 3، ص 134.

[2]- كان الصلح في 20 مارس 1821م، نفس المصدر، ج 3، ص 134.

أ- هندسة المدينة الجزائرية

سنحاول من خلال "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" أن نرسم تخطيطا واضحا للمدينة الجزائرية انطلاقا من بعض المدن التي ذكرها محمد بيرم الخامس أثناء مروره وإقامته بها عند ذهابه إلى فرنسا للتداوي وجاءنا هذا الوصف في الجزء الرابع خاصة حيث أفرد كاتبنا بابا كاملا – أو لنقل عنصرا بتسعة عشرصفحة[1]- علاوة على ماجاء متناثرا في بقية صفحات الكتاب - للحديث عن الجزائر بعمرانها ومجتمعها وعاداته واقتصادها وخاصة تجارتها – عكس ابن أبي الضياف الذي تحدث عن الجزائر بطريقة متناثرة موزعة على أجزاء كتابه الثمانية، فإثر وصفه لمدينة بونة[2] - وهي أول مدينة جزائرية تحدث عنها بيرم الخامس لأنها يبدو الأولى التي زارها إثر رجوعه من فرنسا بحرا خلال زيارته الأولى لهذا البلد الأوروبي – حدد بيرم موقعها فهي تقع على الجبل وفيها مرسى، فهي إذن مدينة يتعانق فيها الجبل مع البحر تذكرنا ببعض المدن التونسية في الشمال الغربي مثل طبرقة وهي مدينة حدودية مع الجزائر.

تتميز مدينة عنابة بسيطرة النمط المعماري الأوروبي وهو ما يعني إما التأثر بالفرنسيين في الهندسة المعمارية أو أن المباني هي في الأصل لسكان أوروبيين قدموا إلى الجزائر وجلبوا معهم نمطهم المعماري على غرار ما فعله الأندلسيون إذ لا ننسى أن الجزائر استقرت بها جالية أوروبية كبيرة[3] مثل تونس وبقية المستعمرات الفرنسية الأخرى. يتوسط المرسى البناءات في قلب المدينة وهي هندسة موجودة تقريبا في كافة المدن المغاربية[4]، بالقرب منه توجد بطحاء وقهاوي وحوانيت ومنازل للمسافرين[5].

---

[1]- الخامس (محمد بيرم)، صفوة اللإغتبار ...مص.س، ج 4، من ص 2 إلى 21.

[2]- مدينة بونة هي عنابة الحالية تقع في شرق الجزائر على الحدود مع البلاد التونسية

[3]- أنظر مقال لأرنولي (فرانسوا) " الأقليات الأوروبية في شمال إفريقيا خلال القرن 18م "، م، ت، ع، د، ع، ـ، عدد 25 و26، 1997

[4]- ريمون (أندري)، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، قسم الترجمة، القاهرة، 1985.

[5]- الخامس (محمد بيرم)، صفوة الاعتبار ...مص.س، ج 4، ص3.

تبدو مدينة عنابة إذن مدينة نشيطة تجاريا وهو ما يساعد على توفير الشغل المباشر وغير المباشر ويحرك الدواليب الاقتصادية، توجد في وسط البطحاء حديقة صغيرة للتنزه وبالقرب من المرسى الجامع . يعتبر المرسى إذن شريان المدينة وهو ما يجعل الوظيفة الاقتصادية للمدينة الجزائرية تقترن بالوظيفة الدينية من ناحية وبالوظيفة الترفيهية من ناحية ثانية وعلى غرار ما هو موجود في بقية المدن العربية الإسلامية ينتصب الجامع بالقرب من الحمام وذلك لمساعدة المصلين على التطهر قبل دخولهم للصلاة أما وظيفة الميناء فيؤكد محمد بيرم الخامس أنها صناعية وهو ما يوحي بأن عنابة هي صناعية بالأساس[1] لكن عن أي نشاط صناعي يتحدث بيرم ؟.

إنه معدن الحديد الموجود بالقرب من المدينة والذي يوجه إلى مرسيليا[2] فالمدينة تعتمد على المناجم وخاصة الحديد الذي يتم تحويله في فرنسا بعد أن يجلب من الجزائر عبر ميناء مرسيليا وهي طريقة اتبعتها فرنسا مع جميع مستعمراتها في شمال إفريقيا فلم يذكر بيرم وجود مصانع في عنابة الأمر الذي أكده أندري ريمون في كتابه "**المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**" والذي أكد أن الجزائر مدينة تتميز بضعف نشاطها الحرفي إذ لم يكن بها سوى ثلاثة وثلاثون طائفة مهنية من حرفيين وتجار[3] فأندري ريمون أراد بهذه الإحصائية أن يذكرنا بضعف النشاط الاقتصادي في الجزائر ولكنه رغم ذلك لعبت الأنشطة الاقتصادية دورا أساسيا في تنظيم المدينة الجزائرية ويتجلى ذلك خاصة في المدن الكبرى التي تقع جغرافيا على المحاور التجارية الرئيسية رغم أن هذه الأنشطة التجارية ظلت نمطية[4] .

فسر أندري ريمون هذا الضعف باتجاه الجزائر – كسائر المدن العربية الأخرى – إلى الاكتفاء بالربح المعقول وبرفض المنافسة لأن الجزائريين تعودوا على المعيشة وسط جماعات مغلقة(طوائف) وداخل إطار جغرافي منحصر (السوق) والاتجاه نحو الانطواء داخل عالم يعتقد العرب – بحكم العادة – أنه متفوق

---

[1]- - نفس المصدر، ج 4، ص 2.

[2]- المصدر نفسه، ج4، ص3.

[3]- ريمون (اندري)، المدن العربية الكبرى ... مر.س، ص ص 72- 74-75-

[4]- نفس المرجع. ص 171.

على عالم خارجي يجهلونه عن عمد، يدعم هذا الرأي برنارد لويس الذي قال : "لقد عاشت الشعوب الإسلامية في حماية القوة العسكرية للإمبراطورية واستمرت هذه الشعوب حتى فجر الأزمنة الحديثة تتلذذ بالاعتقاد بأن مدينتها ستظل على الدوام وإلى حد بعيد متفوقة على جميع المدنيات الأخرى."[1]

نستطيع التعمق أكثر في أهم الحرف الموجودة في مدينة عنابة من خلال الوصف الذي قدمه محمد بيرم الخامس لجامع المدينة والذي صادف أن صلى فيه إذ هو مفروش بالحصير والسمار على نحو ما هو موجود في تونس وبقية البلدان العربية المسلمة الأخرى[2] وهذه المفروشات لا شك أنها صنعت من نبات المنطقة إذ عادة ما يتم استغلال خصوصية كل منطقة في الصناعات التحويلية في أي بلد.

تطبع هذه الهندسة المعمارية أيضا مدينة الجزائر – التي زارها محمد بيرم الخامس أيضا[3] – إذ نجد المرسى يشكل نواة رئيسية للمدينة والأبنية هي على نحو ما هو موجود في عنابة وتوجد بالقرب من المرسى الجوامع ثم الحوانيت وتتركز خارج المدينة البناءات للإقامة – أي الأحياء السكنية – ومقامات الأولياء والعلماء - مثل مقام سيدي عبد الرحمان الثعالبي - والبساتين وتوجد كذلك منازل إقامة للمسافرين على النمط الأوروبي مما يعني أن المدينة تحتوي – إضافة إلى سكانها الأصليين – سكانا آخرين من خارج الجزائر مما يضفي عليها طابعا اقتصاديا.

رصد محمد بيرم الخامس هذا التنظيم في مدن جزائرية أخرى على غرار وهران، تلمسان، قالمة، سكيكدة، بجاية وجيجلي وهي مدن بنيت على النمط الأوروبي وكذلك الشأن بالنسبة لقرى صغيرة زارها أيضا. والملاحظ في هذه المدن هو الازدواجية بين المدينة العتيقة (العربي) والمدينة الجديدة وهي ظاهرة طبعت المدن العربية الكبرى حسب أندري ريمون.

يؤكد محمد بيرم الخامس أنه توجد خارج قلب المدينة الحارات القديمة الشبيهة بحارات تونس فالمدينة ذات وجهين وجه عتيق وآخر عصري وتتميز المدينة

---

[1]- نفسه ...، ص 172.

[2]- الخامس (محمد بيرم)، صفوة الإعتبار ...مص.س، ج 4، ص 4.

[3]- نفس المصدر، ج 4، ص 5.

العتيقة بضيق أنهجها وهي صفة كل المدن العربية القديمة في مصر وتونس والمغرب وعادة ما تكون لهذه المدن الجزائرية أبواب بدفة واحدة على غرار أبواب دور عنابة ويكون هذا الباب مقوسا قليل الارتفاع[1].

تحتوي المدينة الجزائرية - إضافة إلى المرسى والحوانيت[2] والجوامع والأحياء السكنية - على سوق للخضر وهي سوق واسعة فيها قبة من الزجاج تحمل على قطع حديد مرفوعة على أعمدة حديدية والحيطان مقسمة إلى أمكنة، يعني أنها بطحاء مسطحة - على غرار ما يوجد اليوم – وكل تاجر ينفرد بجزء معين دون أن يكون هناك تقسيم بواسطة البناء أي أنها قيساريات[3] كتلك التي تحدث عنها أندري ريمون وهذه السوق في الحقيقة هي ظاهرة قديمة لدى العرب عموما ظهرت منذ الجاهلية وموجودة إلى يومنا هذا.

على مسطح متعامد ومساحة صغيرة إلى درجة جعلت الأسواق تنمو على طول الشوارع المؤدية إلى الأبواب وخاصة في اتجاه باب مخزون مخرج المدينة الرئيسي[4] ويشير إلى أنه توجد في الجزائر ثمانية عشر قيسارية وأن هذه القيساريات هي في الحقيقة من شواهد العصر العثماني المعمارية. نلاحظ إذن أن الهيكل المعماري للمدينة الجزائرية هو هيكل متأثر بالطابع العثماني من ناحية وبالطابع الأوروبي من ناحية ثانية.

يتضح- بناء على ما تقدم - أن للمدينة في الجزائر وظائف متعددة فوجود الجوامع يحيلنا بالضرورة على وظيفتها الدينية وهذا أمر طبيعي بحكم أن البلد يدين بالإسلام لذلك نجد الجامع يتوسط المدينة على نحو ما هو موجود في كافة البلدان الإسلامية وتحيط به الأنشطة الاقتصادية لا سيما التجارية ولكن ذلك لا يمنع وجود كنائس في المدن الجزائرية وهذا يحيلنا على التعايش الديني القائم في الجزائر فبيرم الخامس ذكر لنا وجود كنيسة في قالمة والواضح أن الكنيسة وجدت

---

[1]- نفسه...، ج 4، ص 4.

[2]- يصف لين الحانوت بأنه مكان صغير مربع الشكل يبلغ ارتفاعه ستة أو سبعة أقدام وطول ضلعه بين ثلاثة وأربعة، وقد ذكر أندري ريمون أن الجزائر كانت تحتوي في القرنين السادس عشر والسابع عشر ألفي حانوت.

[3]- ريمون (أندري)، المدن العربية الكبرى ... مر.س، ص 178.

[4]- نفس المرجع، ص 178.

للجالية المسيحية الموجودة منذ القديم إضافة إلى الجالية اليهودية وهنا تستوقفنا ملاحظة وهو أن بيرم الخامس لم يذكر لنا وجود معبد لليهود رغم حضور هذه الفئة في المدن الجزائرية وهذا يعني أن هذه المعابد لم توجد قط في المدن الجزائرية أو أنها موجودة ولكن بيرم لم يصادفها في طريقه.

يذكر محمد بيرم الخامس وجود أربعة جوامع في مدينة الجزائر اثنان مالكيان واثنان حنفيان وهنا إشارة إل تعايش المذهبان المالكي – المذهب الرسمي للسكان الأصليين– والمذهب الحنفي[1] – المذهب الرسمي التركي أي العثماني – ولا تزال في الحقيقة بقايا المذهب الحنفي إلى اليوم وتتجلى في كيفية وقوف المصلي (يده مرفوعة إلى صدره) وكذلك في الصوامع الدائرية التي لا تزال قائمة في المدن العربية – الإسلامية لا سيما الجزائر.

إذا ما تجاوزنا الوظيفة الدينية التي تشترك فيها المدن الجزائرية بما في ذلك القرى فإن لهذه المدينة وظائف متعددة فعنابة مثلا - التي تمركزت على الساحل المتوسطي – تضطلع إضافة إلى دورها الصناعي بوظيفة سياحية سواء كانت سياحة أثرية أو شاطئية، أما مدينة الجزائر فإن لها وظيفة سياسية إذ هي مقر الحاكم العام لقطر الجزائر ولها وظيفة اقتصادية فلاحية بالأساس ويتجلى ذلك من خلال البساتين الموجودة وعمليات السقي التي تحدث عنها محمد بيرم الخامس[2] هذا بالإضافة إلى الوظائف التجارية للمدن الجزائرية إذ أن وجود سكك حديدية - كتلك التي تربط الجزائر بوهران وتلمسان والطريق الرابطة بين عنابة وقالمة وسوق هراس وقسنطينة واسكيكدة[3] - دليل على الحركية التجارية التي تشهدها المدن الجزائرية وهي سكك أقيمت للربط بين مناطق الإنتاج وموانئ التصدير في اتجاه مرسيليا بالأساس وهنا نلاحظ مدى أهمية السكك الحديدية في القرن التاسع عشر.

---

[1]- يتعرض محمد بيرم الخامس إلى الشيخ أحمد أبو قندورة المفتي الحنفي...، صفوة الاعتبار... مص.س، ج 4، ص 16.

[2]- الخامس (محمد بيرم)، صفوة الاعتبار... مص.س، ج 4، ص5

[3]- نفس المصدر، ج 4، ص6.

أهم السكك الحديدية في الجزائر في القرن التاسع عشر

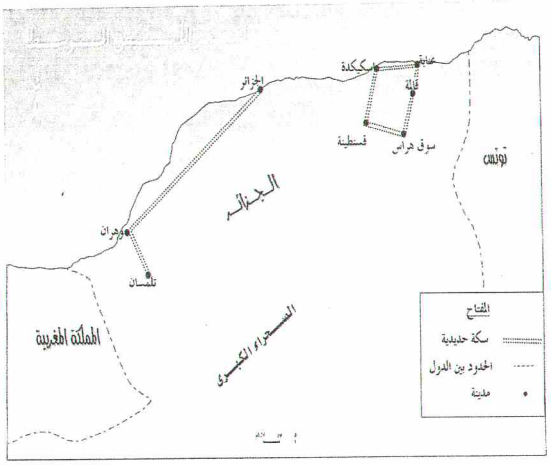

الخامس (محمد بيرم)، صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، دار صادر بيروت، ط 1، ج 4، المطبعة الإعلامية بمصر، 1302 هـ

هل كان للمدينة الجزائرية دورا تعليميا؟ وما هي نوعية العلوم التي كانت تقدمها؟.

تنقسم المعارف في المدن الجزائرية إلى قسمين : إسلامية وأخرى نصرانية أما المعارف الإسلامية فقد تركزت أساسا على الفقه وبالتحديد الفقه المالكي والنحو وهنا نلاحظ تغييبا للفقه الحنفي والحنبلي والشافعي، وكانت العلوم تدرس في الجوامع في قسنطينة وتلمسان أما الجهات الجنوبية فقد اضطلعت فيها زوايا الطرق بهذه المهمة باعتبار أنها عادة ما تستعمل لتدريس القرآن الكريم، أما المدرسون فقد كانوا يتلقون تعليمهم – قبل عودتهم إلى الجزائر للتدريس – إما بتونس (في جامع الزيتونة) أو في مصر (الأزهر) أو في فاس (جامع القرويين) وهنا نلاحظ وجود حركية ثقافية بين المدن العربية، ومرد هذا الارتحال إلى تونس ومصر وفاس قلة العلماء في الجزائر في القرن التاسع عشر. يعود علماء الجزائر بعد تحصيلهم للمعارف إلى بلدهم للتدريس في الجوامع مقابل مرتب مالي تدفعه الدولة الفرنسية[1]، فهذه الأخيرة هي التي تحرص على مصاريف إقامة الجوامع وهنا يطرق أذهاننا سؤال مهم: لماذا أخذت فرنسا على عاتقها مصاريف الجوامع والمدرسين ؟.

[1]- الخامس (محمد بيرم)، صفوة الإعتبار ... مص.س،ج 4، ص 19.

استولت فرنسا على كل شيء في الجزائر وأصبحت تراقب كل الميادين بما فيها الديني مثل الأوقاف وبالتالي على عائداتها علاوة على أنها لم تترك جميع الجوامع مفتوحة بل بعضها ومن هنا فإن اهتمامها بالجوامع يسهل عليها عملية المراقبة حتى لا تتحول الجوامع مثلا إلى مراكز للمقاومة.

إلى جانب المدرسين من أصل جزائري هناك مدرسون تونسيون ومغاربة في المدن الجزائرية وإضافة إلى الجوامع والزوايا التي ساهمت في نشر التعليم الإسلامي هناك مؤسسات تعليمية غير إسلامية إذ تمتع القسيسون بمدارس لتعليم الديانة النصرانية تقدم - علاوة على التعليم الديني – علوما غير دينية كالرياضية التي أدخلها القسيسون الذين عرفوا بالجوزويت[1].

يبدو أن الهدف من إنشاء هذه المدارس ليس فقط إيجاد مؤسسات تعليمية للأجانب وإنما محاولة لتنصير المسلمين الجزائريين وهو هاجس المسيحيين منذ أن وطأت أقدامهم المدن الجزائرية. كانت هذه العلوم النصرانية تقدم في مكاتب على النمط الأوروبي والتي قسمت إلى نوعين مكاتب للذكور وأخرى للإناث وتدرس فيها اللغة الفرنسية والكتابة والعزف على البيانو[2] (موسيقى)، أما المدرسون فأغلبهم نساء وأما المرتادون ففيهم المسلمين وغير المسلمين وتكتفي هذه المكاتب فقط بالعلوم الأولية إذ لا تدرس الدراسات العليا لأن ذلك يستوجب التوجه إلى باريس.

ب- المدينة الجزائرية بوابة للاحتلال ومركزا للحراك السياسي

لعبت المدينة الجزائرية – في كامل مراحل تاريخ الجزائر – دورا هاما في الأحداث التي شهدتها هذه الإيالة العثمانية والمستعمرة الفرنسية سواء كانت اجتماعية، اقتصادية أو سياسية لكن ذلك لا يجعلنا نهمل دور الريف – القبيلة

---

[1]- الجوزويت هم نصارى من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الخاضعة للبابا قهرتهم دولة فرنسا في فرنسا بالذات بتبرير أنهم يمزجون في تعليمهم الأحوال السياسية على الأحوال الاستبدادية بما لا يوافق سياستها. ورد في نفس المصدر، ج 4، ص ص 19- 20.

[2]- ذكر محمد بيرم الخامس أنه حضر امتحانا في هذه المواد بإحدى مدارس البنات بعنابة، صفوة الاعتبار... مص.س، ج 4، ص 20.

- في مجريات الأحداث وهو ما سنطرق إليه في الباب الأخير المتعلق بالتحولات السياسية والعسكرية في الجزائر في النصف الاول من القرن 19م.

ساهمت المدينة الجزائرية إذن في صنع تاريخ الجزائر منذ الاحتلال الاسباني إلى الاحتلال الفرنسي مرورا بفترة الوجود العثماني فبعد سقوط غرناطة 1492 م آخر معقل للمسلمين في الأندلس تعرض مسلمو شبه الجزيرة الابيرية إلى الإبادة والسجن والتنصير من الكنيسة وملوك اسبانيا مما دفع بهؤلاء إلى الاستنجاد بمسلمي الشواطئ المغربية المقابلة (تونس– الجزائر والمغرب) فاندفعت السفن من الجزائر ومراكش لنجدة إخوانهم وفتحت المدن الجزائرية – كما التونسية والمغربية–أبوابها لهؤلاء المضطهدين مما أثار مخاوف الأسبان والبرتغاليين – الإيبيريين – وأدى إلى الهجوم على هذه المدن الساحلية واحتلالها خوفا من أن توفر لمسلمي الأندلس المناخ الملائم لإعادة استرجاع أنفاسهم والعودة إلى الأندلس من جديد ومن بين المدن التي تم احتلالها مستغانم والمرسى الكبير بوهران سنة 1505 م والجزائر 1508 م وبجاية 1512 م ثم عنابة وأصبحت هذه المدن مركزا للحراك السياسي إذ حاول سكانها طرد الإسبان لكن دون جدوى.

نلاحظ أن المدينة الساحلية الجزائرية مثلت بوابة للاحتلال الاسباني الذي قفز بالمدينة إلى واجهة الأحداث حيث سيتدعم دورها في الحياة السياسية من خلال استنجاد مدينة بجاية سنة 1512 م وسكان بقية المدن سنة 1514 م بالدولة العثمانية من خلال بحارتها الذين كانوا يجوبون البحر الأبيض المتوسط وعلى رأسهم خير الدين وعروج اللذان اتخذا من مرسى حلق الوادي بتونس ثم من جزيرة جربة قواعد لهما، استجاب هذان الأخوان إلى نداء الجزائريين وقدما إلى مدينة جيجل متخذين منها قاعدة لاسترجاع بجاية وفعلا استطاعا تحريرها من الهيمنة الاسبانية ثم اتجها نحو الجزائر وبدأت المدن تسقط الواحدة تلو الأخرى وأخذ الأخوان يتقدمان نحو الغرب إلى أن بلغا مدينة تلمسان حيث جرت معركة قتل فيها عروج وهنا تأزم الوضع الأمر الذي دفع بخير الدين إلى إقناع الجزائريين بضرورة طلب المساعدة العثمانية مقابل إلحاق الجزائر بالإمبراطورية وذلك للوقوف في وجه الأخطار المحدقة بالمنطقة، وافق الجزائريون على هذا الاقتراح وتلقت الجزائر أول مساعدة عسكرية من الباب العالي سنة 1519 م وعين خير الدين حاكما على الجزائر التي أصبحت نيابة عثمانية، وهكذا خرجت المدينة

الجزائرية من طور الاحتلال الاسباني لتكون بوابة لاحتلال آخر ألا وهو العثماني وليتواصل دور المدينة الجزائرية السياسي في المنطقة من خلال علاقتها بالإمبراطورية العثمانية من جهة وبالبلدان المجاورة من جهة ثانية لا سيما تونس حيث شكلت المدينة ساحة حرب أو لنقل صراع بين البلدين مثل قسنطينة من الجانب الجزائري والكاف من الجانب التونسي فالعلاقة الصدامية في القرن الثامن عشر تعود إلى عهد مراد باي الذي وجه لصاحب الجزائر هدية لكن هذا الأخير ردها[1]، عندها عزم هذا الباي على غزو الجزائر وفي طريقه التقى بمحلة يقودها علي خوجة صاحب قسنطينة ودارت بينهما معركة انتصر فيها مراد باي ثم التقى الجمعان في قسنطينة وكانت الهزيمة من نصيبه هذه المرة[2] في محل يعرف بجوامع العلماء في 17 ربيع الثاني 1112هـ / 1700م ثم خرج بمحلة أخرى في ماي 1702 م .

ما يهمنا ليس سرد هذه الأحداث بل الوصول إلى استنتاج يتمثل في ذلك الدور الذي لعبته مدينتي قسنطينة والكاف في المعارك باعتبار أنهما مدينتين حدوديتين وأن طريق المحال عادة ما يمر بهما.

كانت المدينة الجزائرية فاعلة أيضا في ذلك الصراع الداخلي الذي شهدته تونس في القرن الثامن عشر والمعروف بالفتنة الباشية – الحسينية، حيث ظلت المدينة الجزائرية تحتضن كل من يفر إليها من أطراف الصراع بل كانت تساند البعض منهم لاسترجاع أو افتكاك السلطة، ليس هذا فقط بل مثلت المدينة الجزائرية مقبرة للبعض ممن توفوا بالجزائر مثلما حصل مع إبراهيم الشريف[3] زمن عشي مصطفى (صاحب الجزائر) أو مع علي باشا ابن أخ حسين بن علي الذي ثار على عمه[4] وفشل ففر إلى مدينة الجزائر وهناك استقر واستطاع استمالة

---

[1]- - ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان ... مص.س، ج 2، ص 75.

[2]- نفس المصدر، ج 2، ص 75.

[3]- ضابط تركي قضى على الحكم المرادي سنة 1702 م ودخل في صراع مع الجزائر لكنه هزم وتم أسره سنة 1705 م . الشريف (محمد الهادي)، ماذا يجب أن تعرف عن تاريخ تونس...مر.س، ص 80.

[4]- سبب الثورة أنه أبعد عن المسؤوليات بعد أن رزق حسين بن علي بأولاد ولم يعد علي باشا وليا للعهد.

صاحبها إبراهيم باشا – الذي خلف عيدي باشا – ببعض الوعود فأخذت المدينة الجزائرية على عاتقها مساعدة علي باشا وفعلا خرجت محلة الجزائر في اتجاه تونس لإعادته إلى الحكم وكانت الكاف مجددا مسرحا للنهب ثم تواصل السير إلى الحاضرة ودارت واقعة انتصر فيها علي باشا في سبتمبر 1735 م وفر حسين بن علي إلى القيروان ودامت هذه الحرب خمسة سنوات قطع على إثرها رأس هذا الأخير في ماي 1740م[1] .

كانت قسنطينة بدورها وجهة علي بن حسين بن الذي التحق بشقيقه محمد باي وكان آنذاك صاحب الجزائر إبراهيم خوجة، وهكذا استطاعت المدينة الجزائرية أن تقفز من جديد إلى واجهة الأحداث من خلال احتضانها لابني حسين بن علي وهناك استطاعا أن يجمعا أنفاسهما وينطلقا مجددا بمعية محلة جزائرية في اتجاه تونس من أجل القضاء على حكم عمهما علي باشا[2] واسترجاع السلطة وكان ذلك سنة 1746 م لكن هذه الحملة باءت بالفشل لتعاد الكرة سنة 1756 م ويتم التخلص من علي باشا وإحلال محمد وعلي ابنا حسين بن علي محله.

كانت المدينة الجزائرية أيضا الملجأ المناسب ليونس بن علي باشا عندما ثار على والده[3] حيث قصد مدينة قسنطينة واختياره لهذه المدينة مرده أنه يحظى بتقدير من صاحبها عشي حسن باي حتى أنه ألزمه داره، كما احتضنت مدينة الجزائر إسماعيل بن يونس وهناك عاش وتزوج من جزائرية.

ظلت المدينة الجزائرية مقبرة للفارين من الاضطرابات السياسية الحاصلة في تونس حيث حل بالجزائر علي بن مصطفى وهو رجل من حوانب الترك ادعى أنه من ذرية علي باشا والحال أن سلالة هذا الملك لم تعد موجودة

---

[1]- الشريف (محمد الهادي)، ماذا يجب أن تعرف عن تاريخ تونس...مر.س، ص 84.

[2]- كان علي باشا حليفا للجزائريين الذين ساعدوه على افتكاك السلطة ولكنه دخل معهم في صراع بعد ذلك نتيجة كبريائه وصرامته في كل ما يتعلق بشؤون السيادة ومطالبته أتراك الجزائر بدفع ضريبة سنوية ...

[3]- ثار يونس على والده علي باشا نتيجة تشريك هذه الأخير أبنائه الآخرون في الحكم والحال أن يونس كان يرغب في الإنفراد بالحكم بمعية والده، إتحاف أهل الزمان ... مص.س، ج 3، من ص 135 إلى 141.

وكان ذلك زمن محمد باي والذي فر إلى جبل باجة واستطاع أن يجمع حوله أتباعا من بعض القبائل لكنه تمت مطاردته ففر إلى الجزائر حيث مات ودفن هناك[1].

تواصل هذا الدور للمدينة الجزائرية في القرن التاسع عشر مع دخول الفرنسيين واحتلال البلاد حيث كان لعديد المدن الساحلية والداخلية دورا سياسيا وعسكريا خاصة منها المدن الجنوبية والجنوبية الغربية زمن حكم الأمير عبد القادر (بين 1832 م و1847 م).

III- الحياة الاجتماعية في الجزائر

لا يمكن التطرق إلى تاريخ الجزائر في القرنين 18 م و19م دون التوغل في الجانب الاجتماعي ففي هذا الموضوع تحدث محمد بيرم الخامس كثيرا - وإن غيبه أحمد بن أبي الضياف– مبرزا لنا الفسيفساء من العرقيات والجنسيات[2] مع التركيز على فئة استطاعت تجاوز عائق أقليتها وغربتها لتصبح فاعلة في الاقتصاد والمجتمع الجزائري بتناقضاته وتباييناته.

1- فسيفساء من الجنسيات والعرقيات

تنوعت الحياة الاجتماعية في الجزائر في القرن التاسع عشر، وقد قسم محمد بير م الخامس سكان هذا البلد حسب الجنسيات والعرقيات التي كانت تقطنه مقدما تفصيلا حول عدد كل فئة، فهذا البلد هو بلد مسلم لذلك كان عدد المسلمين هو الغالب على البقية. وعموما يبلغ عدد سكان الجزائر – التي قسمها بيرم إلى ثلاثة أوطان ويقصد أقاليم[3] - مليونين وسبعمائة وستون ألفا استأثر المسلمون بالضيب الأوفر حيث قدر عددهم حسب بيرم مليونين وخمسمائة ألف يأتي بعدهم من حيث العدد النصارى (مائتا ألف ونيف) وأخيرا اليهود الذين يمثلون نحو الثلاثين ألفا.

---

[1]- نفس المصدر، ج3، ص 154.

[2]- الخامس (محمد بيرم)، صفوة الإعتبار... مص.س، ج 4، ص 15.

[3]- وطن الجزائر (في الوسط يمتد من الشط شمالا إلى الصحراء جنوبا)، وطن وهران غرب وطن الجزائر ووطن قسنطينة شرق وطن الجزائر. ولكل وطن قاعدة (أظن يقصد عاصمة) وهي المدينة المسماة باسمه، صفوة الإعتبار... مص.س، ج 4، ص 6.

عدد سكان الجزائر حسب الفئات في القرن 19م

الفئـــة	العـدد بالألف نسمة
المسلمـون	2.500.000
النصـارى	*200.000
اليهـود	30.000
المجمـوع	2.760.000

أنجز هذا الجدول استنادا إلى المعلومات الواردةفي " صفوة الاعتبار"، الجزء الرابع، ص 6

يذهب محمد بيرم الخامس في معرض تفصيله لهذه الأجناس المختلفة إلى تقديم جزء تفصيلي لسكان الجزائر فالنصارى الذين تحدث عنهم هم في الأغلبية من الإسبنيول إذ لا ننسى أن الجزائر كانت تحت الهيمنة الاسبانية قبل مجيء الإخوة خير الدين وعروج وتخليصهم منها بالتحالف مع العثمانيين، ويبدو أن هذه الفئة استوطنت الجزائر منذ القرن السادس عشر عندما سقطت عديد المدن الجزائرية تحت هيمنة الإسبان[1] ثم بعد ذلك الهيمنة الفرنسية في القرن التاسع عشر (1830 م) والتي أدت إلى ازدياد توافد الجالية الفرنسية خاصة بعد حرب

* - يقول محمد بيرم الخامس أن عدد النصارى مائتا ألف ونيف وحسب العدد الجملي وعدد المسلمين واليهود نستطيع أن نستخرج عدد النصارى بالضبط وهو مائتين وثلاثين ألف.

[1]- مستغانم والمرسى الكبير سنة 1505م، الجزائر سنة 1508م، بجاية 1512م ثم عنابة . ورد في كتاب " الزليج في العمارة الإسلامية ... مر.س، ص 11..

فرنسا وألمانيا سنة 1870م واحتلال ألمانيا لإقليمي الألزاس واللوران[1] مما أجبر بعض أهالي الإقليمين – والذين قدر عددهم مائة وسبعون ألف – على التحول إلى الجزائر. اختارت هذه الجنسيات– سواء كانت الإسبانية أو الفرنسية – المناطق الساحلية بينما يقطن الجهات الغربية والجبال سكان مسلمون من أصل بربري وظلت باقي الجهات موطنا للسكان من نسل العرب.

إضافة إلى هذه الجنسيات سكنت الجزائر فئات عرفت بالأقليات وهي أساسا أقلية تركية[2] يعود تاريخها إلى بداية القرن السادس عشر 1519م عندما تلقت الجزائر أول مساعدة عسكرية من الباب العالي بناء على طلب من خير الدين وهذا الوجود التركي له ما يبرره نظرا لطبيعة العلاقة العثمانية – الجزائرية التي استمرت حوالي ثلاثة قرون خاصة أن الجزائر أعلنت نيابة عثمانية وظلت تستنجد بالأسطول العثماني في جل حروبها وهذا من شأنه أن يكون جالية تركية هناك ولو من العسكريين لا سيما أن هذه الأقلية لا يمكن أن تشعر بالغربة في الجزائر للوحدة الدينية التي تجمعها مع المجتمع المحلي .

أقليات أخرى كانت وجهتها الجزائر – وليس الجزائر فقط في الحقيقة بل أيضا تونس – وهي الأقليات الأندلسية المسلمة واليهودية[3]، هذه الفئة التي فرت بدينها إثر تخييرهم بين إعتناق المسيحية أو مغادرة الأندلس بعد حملة التنصير وقرار الطرد في بداية القرن السابع عشر (1609م) واسترجاع الأندلس من قبل المسيحيين فكان اختيار هؤلاء الهجرة ومنهم من اختار الجزائر للإستقرار.

---

[1]- الخامس (محمد بيرم)، صفوة الاعتبار ... مص.س، ج 4 ، ص7.

[2]- نفس المصدر، ص 9. أنظر أيضا " إتحاف أهل الزمان ...مص.س ، ج 2، ص 20 وما بعدها.

[3]- الخامس (محمد بيرم)، صفوة الإعتبار ... مص.س، ج 4، ص 7.

فرنسا وألمانيا سنة 1870م واحتلال ألمانيا لإقليمي الألزاس واللوران[1] مما أجبر بعض أهالي الإقليمين – والذين قدر عددهم مائة وسبعون ألف – على التحول إلى الجزائر. اختارت هذه الجنسيات– سواء كانت الإسبانية أو الفرنسية – المناطق الساحلية بينما يقطن الجهات الغربية والجبال سكان مسلمون من أصل بربري وظلت باقي الجهات موطنا للسكان من نسل العرب.

إضافة إلى هذه الجنسيات سكنت الجزائر فئات عرفت بالأقليات وهي أساسا أقلية تركية[2] يعود تاريخها إلى بداية القرن السادس عشر 1519م عندما تلقت الجزائر أول مساعدة عسكرية من الباب العالي بناء على طلب من خير الدين وهذا الوجود التركي له ما يبرره نظرا لطبيعة العلاقة العثمانية – الجزائرية التي استمرت حوالي ثلاثة قرون خاصة أن الجزائر أعلنت نيابة عثمانية وظلت تستنجد بالأسطول العثماني في جل حروبها وهذا من شأنه أن يكون جالية تركية هناك ولو من العسكريين لا سيما أن هذه الأقلية لا يمكن أن تشعر بالغربة في الجزائر للوحدة الدينية التي تجمعها مع المجتمع المحلي .

أقليات أخرى كانت وجهتها الجزائر – وليس الجزائر فقط في الحقيقة بل أيضا تونس – وهي الأقليات الأندلسية المسلمة واليهودية[3]، هذه الفئة التي فرت بدينها إثر تخييرهم بين إعتناق المسيحية أو مغادرة الأندلس بعد حملة التنصير وقرار الطرد في بداية القرن السابع عشر (1609م) واسترجاع الأندلس من قبل المسيحيين فكان اختيار هؤلاء الهجرة ومنهم من اختار الجزائر للإستقرار.

---

[1]- الخامس (محمد بيرم)، صفوة الاعتبار ... مص.س، ج 4 ، ص7.

[2]- نفس المصدر، ص 9. أنظر أيضا " إتحاف أهل الزمان ...مص.س ، ج 2، ص 20 وما بعدها.

[3]- الخامس (محمد بيرم)، صفوة الإعتبار ... مص.س، ج 4، ص 7.

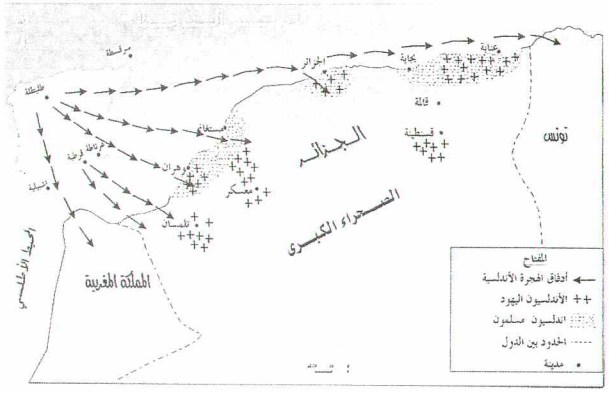

خريطة الموجات الهجرية الأندلسية في إتجاه بلدان المغرب
إثر قرار الطرد لسنة 1609م

عموما كانت الجزائر قبلة لجنسيات مختلفة فرضتها أحداث تاريخية، هذه الأقليات- التي أوردها محمد بيرم الخامس في مؤلفه خاصة اليهود[1] - تجد صداها لدى على تابليت[2] الذي قسمهم إلى اليهود الأهالي الذين يعتبرون أنفسهم أصيلي الجزائر ويظهرون لها الولاء التام وهي فئة تمسكت أساسا بالإنتماء إلى الجزائر واليهود الذين تعرضوا لاضطهاد محاكم التفتيش في الأندلس وهاجروا مع المسلمين إلى شمال إفريقيا ومنها الجزائر وتضم هذه الفئة نخبة من رجال العلم والثقافة العربية والعبرية واللاتينية وعلى رأسهم الحاخام ابن يمينة وقد حافظت هذه الفئة على ولائها للجزائر أيضا[3].

حافظت هاتان الفئتان من اليهود على تضامنهما مع الأغلبية الجزائرية ومع الأقليات الاجتماعية الكثيرة الأخرى ودليل ذلك مقاومتها لحملة شارل الخامس سنة 1541م[4] واحتفال هذه الطائفة اليهودية بهزيمة الأسطول المعتدي من خلال الصوم وإقامة الصلوات حتى أن هذه المناسبة اعتبروها عيدا وطنيا وراحوا يحيونه سنويا، وقد كان لهاتين الفئتين حظوة جعلت محمد الكبير – باي

---

[1] - ركزنا على اليهود لأن هذه الفئة سيكون لها دورا فاعلا في الاقتصاد الجزائري رغم قلة عددها ولكن ذلك لا ينفي أهمية الأقليات الموريسكية التي سنتحدث عنها أيضا لاحقا.

[2] - تابليت (علي)، " يهود الجزائر في الفترة العثمانية (1516 – 1830)"، م . ت . ع . د . ع ..، ع11-12مدد، 1995، ص 167.

[3] - نفس المرجع، ص ص 167 – 168.

[4] -المرجع نفسه، ص ص 167 – 168.

وهران – يستدعي اليهود الذين كانوا مقيمين في معسكر[1] ومستغانم وندرومة إلى وهران ويخصص لهم حيا للسكن ويمكنهم من قطعة أرض لاتخاذها مقبرة لهم.

الفئة الثالثة من اليهود يسميهم علي تابليت المغامرون والذين هاجروا إلى الجزائر من مختلف الشواطئ الأوروبية لا سيما ليفورنو" Livournou " ويتمتع هؤلاء بمستوى رفيع من التكوين والتدريب المهني بالإضافة إلى مرونة الشخصية ومعرفتهم باللغة السائدة في حوض البحر الأبيض المتوسط وقد جاؤوا إلى الجزائر بعائلتين" Alverenga" و"Lousada " في سنة 1686م ثم التحقت بهما عائلات أخرى مثل " Molco " سنة 1690م " Benjamin Zacuto " سنة 1691م و" Tunes " و" Coen" سنة 1697م و" Joseph moise " سنة 1698م و" joseph Nathan de Latad " سنة 1714م و" Isaad Soliman " سنة 1717م و" Neftali Busnach " سنة 1723م و" Abraham Busnach " سنة 1724م و"Bouchara Abraham " سنة 1732م و " Eliezer Sforno " سنة 1733م و" Jacob Bouchara " سنة 1736م و"Abraham Bouchara " سنة 1757م و" Coen Bacri " سنة 1774م و" Naftali Busnach " سنة 1782م[2]، هذا إضافة إلى عائلات أخرى مثل " دوران "، "كوهين صولال "، "سيرور " " ناهون" ، "مواتي "، "ليفي فالانسي"، " تابت"، "ستورا"، "عمار"، "دانينوس"، "توبيانا"، "أبوكايا"، "سرفاتي " بورتوقيز"، أبو الكبري " و"أزولاي"، "تمين"، سماجياوبون جيرونو "[3].

وعموما تشير رشيدة ياسين إلى أن الموجات الهجرية اليهودية المتعاقبة شملت بلد الجزائر نتيجة الاضطهاد الذي شهدته هذه الفئة وطردها من بعض البلدان مثل إسبانيا وسيسيليا في 1492م ونابولي سنة 1541م وأن هذه الموجات

---

[1]- ستصبح معسكر عاصمة لدولة الأمير عبد القادر بين 1832م و1847م.

[2]- تابليت (علي)، " يهود الجزائر ...مر. س "، م . ت . ع. د .ع ع11-12مدد، 1995، ص 167. 168.

[3]- أورد هذه العائلات على تابليت ، ن . م نقلا عن :

- Daumas . E , La vie arabe et la sociéte musulmane , Paris, Ed. 1869, p. 106.

تعود في الحقيقة إلى 1342م وانتهت بعد 1609م[1] وقد قدمت رشيدة ياسين تفصيلا حولناه إلى جدول لمزيد الإثراء:

البلدان التي إنطلقت منها الهجرة الأندلسية باتجاه الجزائر والسنوات

البلد الذي انطلقت منه الموجات الهجرية	السنــة
إسبانيــا	1391م
هولنــدا	1350م
إيطاليــا	1342م
فرنســا	1422م
إسبانيا مرة أخـرى	1609م

أنجز هذا الجدول إستنادا لبعض المعلومات التي أوردتها ياسين (رشيدة) في مقالها :

« the economic and Political Role of Jewish Minority In at the beginning Algiers of th 19th Century », R . A , p120

تؤكد الكاتبة على أن ظهور اليهود في الجزائر كان نتيجة عاملين اثنين : عامل إفريقي وعامل إسباني، فأما العنصر الإفريقي فيتمثل في إتباع التقاليد واللباس الجزائري المسلم وأما العامل الإسباني فقد أشرنا إليه، ولقد كان اليهود فقراء ويواجهون التجاهل، ويظل هؤلاء مدينين لخير الدين الذي سمح لهم بالاستقرار في مقاطعة الجزائر وإن كان ذلك بشرط تحديد حركتهم التجارية وقد قدر عدد المنازل اليهودية في عهده بـ150 منزلا[2] لكن عدد المنازل لا يمدنا بإحصائية دقيقة حول عددهم باعتبار ما اشتهر به هؤلاء من العيش في منازل مكتظة.

و تشير رشيدة إلى أن اليهود استقروا في المنطقة السفلى من الجزائر[3] وعرفوا بعدم اختلاطهم ببقية الفئات الاجتماعية واختيارهم لهذا الموقع تحكمه أغراض اقتصادية إذ هو قريب من الأسواق والمعابد ويذكر"Haedo " أنه وجد مائة وخمسين دارا يهودية في مدينة الجزائر في بداية القرن السابع عشر ولكنه لم

[1]-Yassine (Rachida)," the Economic and political roles of the jewish Minority in Algiers at the beginning of the 19th century " . R . A , p120.

[2] - Yassine (Rachida)," the Economic and political …" op.cit.

[3]- كانت الجزائر في عهد خير الدين مقسمة إلى أقاليم بين أعلى وأسفل جزء من المدينة.

يمدنا بعدد أفراد الدار الواحدة أما " Mendelossolm " فيقدم رقم 8000 شخص و" Eisenbeth " يقول أنهم 10.000 معتمدا على الإحصاء الرسمي لسنة 1621م من مجموع 160.000 نسمة في مدينة الجزائر ويذكر" Shaw " أنهم 15.000 سنة 1720م من مجموع 100.000 مسلم في مدينة الجزائر أما " Tassy " فيؤكد أنه توجد 5000 عائلة يهودية سنة 1757م[1]. يدفعنا هذا الإحصاء الخاص بالعائلات اليهودية ومقارنته بالإحصائيات المتعلقة بالأفراد إلى اعتبار أن عدد أفراد العائلة اليهودية يناهز ثلاثة أفراد.

يذكVenture de Paradis أن عدد اليهود في نهاية القرن السابع عشر يتراوح بين ثمانية وعشرة آلاف أما " Shaler " القنصل العام الأمريكي في الجزائر (1815 م – 1828 م) فيؤكد أن عددهم خمسة آلاف وهو ما يختلف عن الرقم الذي قدمه "Francis Khinght" حيث يقول أنهم ثلاثون ألفا وأن أصولهم إسبانية ولسنا ندري إن كان يقصد مهاجري إسبانيا سنة 1342م أو سنة 1609م[2]. وهكذا نلاحظ أن العدد تراوح بين خمسة آلاف وخمسة عشر ألفا هذا إذا استثنينا الإحصائية الأخيرة التي شكك فيها علي تابليت.

عدد يهود نيابة الجزائـر ونسبتهم من مجموع السكان سنة 1843 م

المدينـة	العـدد	نسبتهم من مجموع السكان (%)	المرتبـة
الجزائـر	5.941	35.05	1
وهـران	4.278	25.23	2
قسنطينـة	3.105	18.31	3
تلمسـان	1.508	08.89	4
المديـة	625	03.68	5
مستغانـم	499	02.94	6

[1]- وردت هذه المعلومات في : "... the Economic and political"، مر.س

[2] Yassine (Rachida)," the Economic and political ... " op.cit. p.121

عنابـة	450	02.65	7
معسكـر	320	01.88	8
سكيكـدة	118	00.69	9
ملیانـة	112	00.66	10
المجمـوع	16.956		

أنجز هذا الجدول إستنادا إلى المعلومات الواردة في مقال تابليت (علي)، "يهود الجزائر في الفترة العثمانية (1516 – 1830) "، م. ت .ع . د. ع، 1995، عدد 11 – 12 ص 171.

***- ملاحظة : عدد اليهود في القرن 17 م يساوي عددهم في القرن 19 م.**

2-أقليات فاعلة في الاقتصاد والمجتمع

أ- الأقليات اليهودية

يدفعنا الحديث عن هذا الخليط الاجتماعي إلى التطرق لمسألة الأقليات في الجزائر ومدى دورها في الاقتصاد والمجتمع. أما الاقتصاد فقد اقتصر محمد بيرم الخامس على الحديث عن التجارة التي كانت مقسمة بين الأهالي والأقلية الفرنسية والمقصود بالتجارة هنا هو المعادن التي كانت تستخرج من المناجم الجزائرية وتحول إلى فرنسا عن طريق سكك الحديد التي كانت تربط مناطق الإنتاج – أي مناجم الحديد بعنابة والفضة بقالمة – بموانئ التصدير إلى فرنسا[1].

كانت الأقلية الفرنسية إذن فاعلة في التجارة ورغم حديثه عن بقية الأقليات إلا أن بيرم لم يذكر دور هذه الأخيرة في الاقتصاد وخاصة الأقليات الأندلسية – سواء المسلمة أو اليهودية[2] - وهذا الدور تؤكده آثار هؤلاء.

دفعنا هذا الشح في المعلومات في "**صفوة الاعتبار**" وانعدامه تماما في "**الإتحاف**" إلى البحث في بعض الكتابات الأخرى، فبالنسبة لليهود يشير علي تابليت أنه لا يوجد في يهود الجزائر من مارس العمل الفلاحي وأنهم اقتصروا على تعاطي التجارة وخاصة الصناعات الحرفية كالخياطة والصياغة والسمكرية وصناعة

---

[1]- الخامس (محمد بيرم)، صفوة الإعتبار ... مص .س، ج 4، ص17.

[2]- ذكرنا سابقا أن الجالية الأندلسية القادمة من الأندلس إثر قرار الطرد سنة 1609 م تظم مسلمين ويهود.

الزجاج والنحاسة والسباكة والطرز وخاصة طرز الذهب على الحرير والقطيفة، كما كانوا يتعاطون صناعة الذهب والفضة وتجارة القطن والحرير والعقاقير والأدوية والبن والفلفل والحديد والتوابل والأدوات الحديدية واللحوم والفواكه والخضراوات والتبغ والعاج والشمع والمرجان وريش النعام وأنياب الفيل والخيول ووبر الجمل والخمور[1]...، ولئن لم يوجد من اليهود من امتهن الفلاحة إلا أنهم لم يتركوا هذا المجال بل عملوا فيه كممثلين للفلاحين العرب والبربر الذين يقصدون المدينة لبيع سلعهم.

سيطر اليهود إذن على كافة المجال التجاري مما أهلهم لأن يصبحوا محركا أساسيا لتجارة الجزائر إذ لا ننسى أن دواليب التجارة تدور في أرض الجزائر وإن كانت الأيادي التي تحركها يهودية ثم لا ننسى أن أغلب اليهود يطغى عليهم الشعور بالانتماء إلى هذا البلد لا سيما اليهود الفارين من الأندلس والذين إحتظنتهم الجزائر وحمتهم في القرنين 17م و18 م[2] . يؤكد هذا الدور مثلا جزائريا يقول: " لا يستطيع عربي بيع دجاجتين دون مساعدة يهودي له"[3]، لقد استنجدنا بالذاكرة الشعبية لأنها أصبحت عنصرا هاما في كتابة التاريخ ولأن الأمثال الشعبية عادة ما تعبر عن واقع معيش ويلاحظ "Gramaye" أنه سنة 1623م تم إنشاء ألفي محل تجاري في الجزائر وأن النشاط تمارسه ثلاثة آلاف عائلة تجارية تعمل في إطار جماعي ولذلك تحول أغلبية اليهود الذين انخرطوا في التجارة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى مقرضين وأعوان اقتصاد (يقدمون القروض)[4]. وتؤكد المراسلات القنصلية والكتابات أن اليهود وسعوا موقعهم كفاعلين اقتصاديين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتضيف رشيدة ياسين أنه منذ نهاية القرن السادس عشر إلى بداية القرن التاسع عشر كان النشاط التجاري الجزائري الأساسي يعتمد على تجارة العبيد وأن اليهود كانوا الأكثر تكوينا في حقول التجارة وكانوا يمثلون قوة ضاربة بل والمنافس الأقوى في المتوسط والجزائر وهو ما انعكس إيجابيا على دورهم في التجارة الأوروبية والأمريكية، وفي هذا السياق

---

[1]- تابليت (علي)، " يهود الجزائر...مر.س "، م. ت . ع .د . ع، ص ص 170-171.

[2]- ريمون (أندري)، المدن العربية الكبرى...مر.س، ص41.

[3]- تابليت (علي)، " يهود الجزائر ...مر.س"، ص 171.

[4] - Yassine (Rachida)," The Economic and Political ... op.cit", p 123.

كتبF. Braudel :"...مثلت الأقلية اليهودية في الجزائر في الفترة العثمانية أقلية منافسة، حيث كان اليهود أسياد الشبكات التجارية وكانوا ينتمون إلى أصناف التجار الكبار. هذه الأقلية وكأي أقلية أخرى لها ميل طبيعي للانسجام...وإلى الدفاع عن النفس..." .

أقلق هذا الدور الفعال للتجار اليهود في الجزائر والمتوسط قناصل فرنسا الذين اعتبروهم يمارسون العنف وقد كان بعض اليهود تحت حماية القناصل الأنقليز أو الفرنسيين وساعدتهم هذه الحماية على تدعيم وتقوية حظوظهم وهو ما ساهم في الانفتاح التجاري لنيابة الجزائر.

ساهم إحتكار اليهود للتجارة في الجزائر في تزايد تأثيرهم في النيابة فأصبحت جميع العمليات التجارية بأيديهم دون تدخل أوروبي، وقد تحكموا حتى في عملية تصدير المنتوجات حيث أكد "M. Eisenbeth" أن اليهود كانوا يصدرون القمح والجلد والزبيب وريش النعام[1]، وقد كان ليهود إسبانيا في قسنطينة بعد 1792م وضع اقتصادي ممتاز مع إسبانيا وجبل طارق ووصل التعامل حتى إلى ميناء المريا "Almeria " ولو بطريقة غير قانونية كما يقول علي تابليت[2]. إضافة إلى ذلك اختص يهود قسنطينة بتجارة الحبوب حيث بلغت نسبة تجارهم من جملة كافة اليهود 12.84 % سنة 1840م[3] وهو ما يبينه الجدول الآتي إعتمادا على معلومات قدمها تابليت علي في مقاله " يهود الجزائر في الفترة العثمانية (1516 – 1830) " بالمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية عدد 11-12 من الصفحة 171:

-توزع التجار في قسنطينة حسب الفئات سنة 1840م

[1] - M. Eisenbeth , « Les Juifs en Alger et en Tunisie à l'époque Turque 1516 – 1830 », R . A , 1952, p 129.

[2]- تابليت (علي)، يهود الجزائر ...مر.س، م. ت. ع. د. ع، 1995، ع11-12د، ص 171

[3]- نسبتهم سنة 1843م بلغت 18.31% ، انظر الجدول ص 44.

التجـار	العـدد	النسبة المئوية (%)
تجار جزائريين	1261	79.81
تجار يهود	203	12.84
تجار أوروبيين	116	07.34
العدد الجملي	1580	99.99

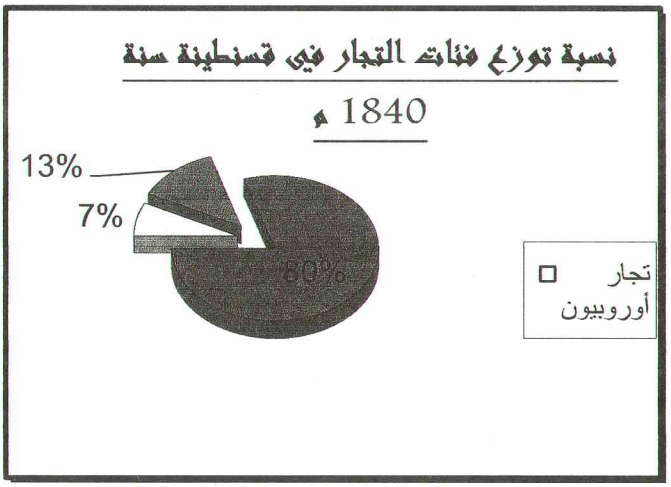

ويتوزع اليهود في قسنطينة على ثلاثة قطاعات رئيسية : الأقمشة والصياغة والخياطة.

توزع اليهود في قسنطينة حسب الأنشطة الاقتصادية ونسبتهم في كل قطاع

الأنشطة الاقتصادية	عدد التجار اليهود	نسبة التجار اليهود (%)
تجارة الأقمشة	106	72.60
الصياغة	17	11.64
الخياطة	23	15.75
المجموع	146	99.99

تم إنجاز هذا الجدول إعتمادا على مقال لتابليت علي ورد بالمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية عدد 11-12، 1995 من الصفحة 171 بعنوان " يهود الجزائر في الفترة العثمانية (1516 – 1830).

وقد رأينا تحويل هذا الجدول أيضا إلى رسم بياني لمزيد الإثراء والتوضيح واخترنا له عنوان:

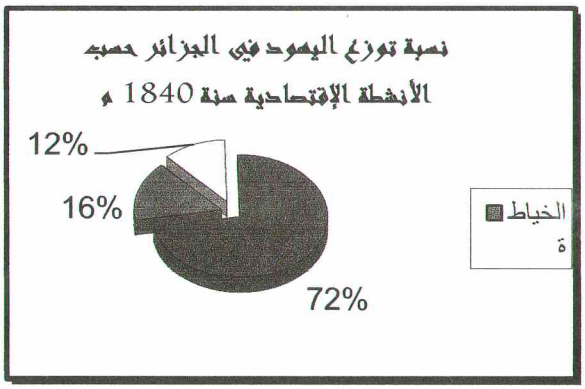

كما سيطر اليهود على مجال صك العملة إذ اشتغلوا موظفين في دار السكة واضطلعوا بمهام مراقبة العملة ومعادنها، إضافة إلى ذلك لعبوا دور وسطاء بين الأهالي خاصة في البادية وكذلك وسطاء مع الأتراك العثمانيين وكانوا يؤجرون حاناتهم للأتراك رغم منعها قانونيا وهذا التجاوز للقانون يحمل أكثر من معنى فهو يدل على أنهم قوة فاعلة في الاقتصاد إذ عادة ما يتم تجاهل بعض المارقين عن القانون نظرا لمكانتهم في الاقتصاد أو في المجتمع. كما سيطر التجار اليهود على موانئ منتشرة في كافة أرجاء العالم وكان لهم انتشار واسع واتصالات مع يهود بقية العالم لا سيما يهود فرنسا وأبرز الموانئ التي سيطروا عليها : مرسيليا، قرطاجنة، جنوة، تونس، الإسكندرية، أزمير، نيويورك، أرزيو، جربة، جبل طارق، أغادير، ليفورن، تطوان، طولون، البندقية، جنوب سردانيا ... وهكذا أصبح التجار اليهود لهم " **نفوذ كبير على الداي** "[1] ولعل أبرز مثال على هذا الدور الفاعل لليهود في الاقتصاد الجزائري هو مؤسسة تجارية يهودية لعائلة بكري والتي تسمى دار بكري وبوجناح التجارية :

- **دار بكري وبوجناح التجارية**[2]

أردنا التطرق إلى مؤسسة دار بكري وبوجناح التجارية لأنها تعتبر أهم صورة لمدى فاعلية اليهود في الاقتصاد والمجتمع، ميزت هذه المؤسسة أواخر القرن

---

[1]- تابليت (علي)، " يهود الجزائر ...مر.س "، ص 172.

[2]- الخامس (محمد بيرم)، صفوة الإعتبار ...مص.س، ج 4، ص8

الثامن عشر وهي تعود في الأصل إلى عائلة يهودية قدمت من ليفورن (Livourne) في نهاية القرن السابع عشر وطيلة القرن الذي يليه، تمركزت هذه الفئة من اليهود – التي سبق الإشارة إليها في عملنا – أساسا في المدن الساحلية الجزائرية، ويعود تزايد نفوذها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي هناك إلى الامتيازات التي منحها إياها الدايات والبايات حيث تمتعت بحرية تامة في التنقل لذلك عرفت بفئة " اليهود الأحرار "[1].

تتكون هذه المؤسسة من عائلتي بكري وبوجناح ويذكر أن هذه الأخيرة استقرت في الجزائر في حدود 1723م ومثلها نفطالي بوجناح ثم التحق به سنة 1724 م إبراهيم بوجناح أما عائلة بكري فقد ظهرت في الجزائر في حدود 1770م وفي سنة 1782م كون أبناؤه جوزيف وجاكوب وسولمون وموردوشي شركة تجارية[2]، أما الابن الخامس أبراهام فلم ينظم إلى هذه الشركة غير أنهم كانوا يعملون سويا في هذا المشروع التجاري وفي 1797م انظم إليهم نفطالي بوجناح وأصبحت الشركة تعرف باسم شركة الأخوة بكري وبوجناح وقد تدعمت هذه الشركة اثر قيام علاقة مصاهرة بين العائلتين[3].

ظل النشاط التجاري مرتبطا بالعلاقات المتميزة مع الدايات والبايات الجزائريين وهو ما يقودنا إلى القول بأن الدور المتنامي لليهود في الاقتصاد وخاصة التجارة في الجزائر ليس مرده فقط قدرتهم على إدارة هذا النوع من النشاط – وإن كان ذلك عاملا مهما– وإنما مرتبط أيضا بعلاقتهم المتميزة بالسلطة الجزائرية آنذاك في القرن الثامن عشر ذلك أن بوجناح عرف بهيمنته على الدايات وصلت إلى حدود تدخله في تعيين البايات[4]. نلاحظ إذن أن هناك ازدواجية بين الاقتصاد والسياسة لدى اليهود.

---

[1]- تابليت (علي)، "يهود الجزائر ...مر.س " نقلا عن :
- Rosenstock , M, " The Jews of Algeria" , H . J , Vol. XVIII April 1956, p 12.

[2]- تابليت (علي)، "يهود الجزائر ...مر.س"، ص 174.

[3]- زواج دافيد بكري ابن جوزيف في 14 / 09 / 1797م من عزيزة أخت نفطالي بوجناح.
تابليت (علي)، نفس المرجع، ص 174.

[4]- المرجع نفسه، ص 175.

يذكر القنصل العام الأمريكي بالجزائر" Richard O'Brien " أن المؤسسة التجارية للإخوة بكري وبوجناح تحتوي على 170 سفينة تجارية تبحر سنويا إلى أوروبا محملة بالقمح والشعير والأصواف والجلود المدبوغة وغير المدبوغة والزيت وقد قدر قيمتها بـ 2.500.000 دولار سنويا ويؤكد أن الشركة لها عقد – رخصة – من الداي وحدد القنصل مجال الشركة الجغرافي من نيويورك إلى ما وراء سالونيكا ويضيف أن الشركة لها ممثلين تجاريين في معظم مدن حوض البحر الأبيض المتوسط.[1]. إذن هناك سيطرة على كافة تجارة المتوسط ويقول القنصل الفرنسي "Jean bon Saint André " : "**من كان يعتقد أن كل تجارة البحر المتوسط ستقع في أيدي يهوديين من الجزائر؟ (في إشارة إلى بكري وبوجناح) لا أحد. وعلى أية حال، إنها أكثر من حقيقة...ما من مكان هام إلا وتجد فيه ممثلين تجاريين لبكري وبوجناح...**"[2].

كان الإخوة بكري وبوجناح يشتريان السفن التي يستولي عليها أسطولي الجزائر وفرنسا وهي سفن تابعة للحلفاء إبان الحروب النابولونية، كما كانا يقومان بشراء حمولات السفن المأسورة الأمر الذي دفع بعلي تابليت إلى وصف الإخوة بكري وبوجناح " بالقراصنة " حيث يقول : " ***ثبت قطعيا أن بوجناح شارك في الإشراف على القرصنة...***"[3] لكن كيف ذلك ؟.عندما تأسر السفن الجزائرية سفنا أجنبية تبيعها في موانئ شمال إفريقيا مثل تونس وسلا وأغادير وينقل ممثلو بوجناح ناتج البيع إليه في الجزائر.

ارتبطت التجارة عند هذه الشركة بالدبلوماسية حيث كان بوجناح على اتصال مباشر مع جميع الممثلين الدبلوماسيين الأوروبيين في الجزائر وكان يعمل وسيطا بين الدول حيث يذكر علي تابليت أن بوجناح أوقف حربا وشيكة بين الجزائر وبريطانيا سنة 1800م وفاوض على السلام بين الجزائر وفرنسا في 1801م وقاد مفاوضات لمعاهدة جديدة بين البرتغال والجزائر سنة 1803م. كان لبوجناح إذن دورا سياسيا متناميا – لا يقل أهمية عن دوره التجاري – إلى درجة أن القنصل الاسباني أطلق عليه عبارة " ***نائب ملك الجزائر***"، كما أشار القنصل

---

[1]- المرجع نفسه ، ص 175.

[2]- نفسه، ص 174.

[3]- نفسه، ص 176.

الأمريكي "Richard O'Brien " إلى هذا النفوذ السياسي لبوجناح وبكري سنة 1803م في قوله التالي :"... **إن نفوذ عائلتي بكري وبوجناح في هذه الإيالة يعد نفوذا قويا إذ يمثلان مجلسا استشاريا، وبإمكانهما أن يعلنا حربا علينا عندما يرون ذلك مناسبا...قاما بصنع سلام مع الفرنسيين برغم قرار الباب العالي (أعتقد أن ذلك وقع في عهد الداي مصطفى وفي حملة نابليون على مصر سنة 1798م) جعلا الداي في مأزق مع الأنقليز فهذا نفوذ سياسي...إنهم يحصلون على المال المطلوب، ويشعلون نار الفتيلة...**"[1] .

يلخص هذا النفوذ المتنامي لليهود في الاقتصاد والمجتمع الجزائريين تقرير القنصل الأمريكي "Joel Barlow" إلى الرئيس الأمريكي جورج واشنطن سنة 1796م الذي ذكر فيه أن العملة أصبحت نادرة التداول في الجزائر وذلك : " **لأن دار اليهود الذين يعملون كسماسرتنا قد تعطلت أموالهم في فرنسا...**"[2] . كانت عائلة بكري تقدم القروض المالية إلى القناصل لفدية أسراهم أو لاستعمالها في شراء الهدايا المقدمة للداي[3].

لمزيد توضيح هذا الدور الاقتصادي يورد علي تابليت تصريحا لـ " Joel Barlow" وجوزيف دونالدسون في سنة 1796 م وفيه : "**بكري اليهودي ...له من النفوذ ما يفوق كل نفوذ الإيالة، وأنه استطاع أن يهدئ الداي ويمدد أجل معاهدة السلام بين الجزائر وأمريكا مدة ثلاثة أشهر...ورأينا من الضروري ...أن تقدم هدية لهذا اليهودي بمبلغ 10.000 سكوين (عملة جزائرية تعادل آنذاك 18.000 دولار) في حالة نجاحه...**"[4] .

احتكرت هذه العائلة تجارة تصدير الحبوب – وهو ما يعني السيطرة على إحدى أهم المواد الأساسية – حيث استطاعت أن تصدر ما بين 1793 م و1798 م كميات كبيرة منها إلى فرنسا مما ساعدت على إبعاد شبح المجاعة عن المقاطعات الفرنسية المحاذية للبحر الأبيض للمتوسط الأمر الذي أدى إلى توسيع تجارة بكري في فرنسا وتنشيط مستودعاته في مرسيليا.

---

[1]- المرجع نفسه، ص 178.

[2]- تابليت (علي)، يهود الجزائر ...مر.س، ص 178.

[3]- كان المبعوث الفرنسي الخاص " Herculais " يستعمل بوجناح وبكري كأصحاب مصارف ومحاسبين ومساعدين سياسيين في معاملاته مع الداي مما أثار غضب القنصل الفرنسي آنذاك " Vallière " سنة 1796 م.

[4]- تابليت (علي)، يهود الجزائر ...مر.س، ص، 178.

كانت هذه الشركة تنافس التجار الفرنسيين مما أثار غيرة هؤلاء ويظهر ذلك من خلال اتهامات سجلت ضد اليهود وضد عائلة بكري بالخصوص نتيجة احتكارها تصدير الحبوب، كما اتهم بعض ملاك سفن مرسيليا عائلة بكري بتحريض الداي على حجز سفنهم في أعالي البحار وبيعها كغنائم في تونس عن طريق مزاد علني وقد أعلنت الغرفة التجارية بمرسيليا سنة 1810 م أنه :" **مادام اليهود هم السادة فإنه لا يمكن لفرنسي أن يغامر بإقامة تجارة هناك**"[1].

ويذكر القنصل الفرنسي جان بون سان أندري أن اليهود كانوا يستعملون نفوذهم لصالح بريطانيا وفعلا فقد حاول الأنقليز سنة 1793م إقناع اليهود بتوقيف شحنات الحبوب إلى فرنسا ومن هنا بدأت فرنسا تماطل وتتأخر في تسديد ديونها للجزائر، وقد صرح دي لاكروا "Delacroix " وزير خارجية فرنسا بكل وضوح : "**أن سبب حجز أو احتفاظ هذه المبالغ يعود إلى هؤلاء اليهود** "ويضيف : "**...وسنمنعهم مستقبلا في إبعاد أنفسهم تماما عن مصالحنا...**"[2].

لم يؤد هذا النفوذ الاقتصادي والسياسي إلى جعل اليهود أقلية فاعلة في المجتمع إذ في الحقيقة لم يتركوا عادات وتقاليد ولم يؤثروا إجتماعيا وذلك لأنهم عرفوا بالانغلاق خاصة أنه مورس عليهم الحصار من قبل البايات كما أنهم لم يندمجوا في المجتمع بل أجبروا على ارتداء الأدباش الدكنة لتميزهم عن البقية[3] ويذكر" Haedo " أن اليهود كانوا يرتدون في القرن الثامن عشر الأسود من الرأس إلى أسفل القدمين ولا يسمح لهم اتخاذ أحزمة من القطن الأحمر وأي لون براق وكانت حلاقتهم تشبه طربوشا أسودا ... ، وقد خصص لليهود حارات خاصة بهم في الجزائر كما في بقية البلدان العربية والإسلامية الأخرى ولم يستطع اليهود حتى الاندماج في بعضهم البعض حيث اختلف لباسهم من فرقة إلى أخرى.

---

[1]- نفس المرجع، ص،181.

[2]- هناك أخطاء تركيبية ولكننا حرصنا على المحافظة على التركيب الذي ورد في مقال علي تابليت " يهود الجزائر... مر.س، ص 181.

[3] - Haedo : « Le costume de tous les juifs (d'Alger) est identique ; ils ont des culottes de toile , une chemise et un pourpoint long comme une soutane et de couleur noire, et par-dessus, ils revêtent un bournous noir et quelquefois blanc » , M. Eisenbeth, « Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque (1516 – 1830) »,R . A , 1952, p 142.

هذه هي وضعية الأقليات اليهودية اقتصاديا واجتماعيا في الجزائر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى قبل ذلك فهل لعب الأندلسيون المسلمون – والمقصود هنا الموريسكيون الذين فروا مع اليهود من الأندلس بعد سقوط غرناطة 1492 م أو بعد قرار الطرد 1609 م/ 1016هـ إلى حدود 1614 م الذي اتخذه الملك الإسباني فيليب الثالث- نفس الدور وإن كانت هجرة هؤلاء بدأت حتى قبل سقوط غرناطة كما يؤكد ذلك عبد الجليل التميمي[1]؟.

ب- الأقلية الأندلسية المسلمة : الموريسكيون

قدر عدد الأندلسيين المسلمين بمدينة الجزائر سنة 1609 م حوالي 25 ألف مهاجر[2] وشملت هذه الهجرة أساسا المدن الساحلية، وقد كانت الجزائر – إضافة إلى تونس والمغرب– قد استقطبت عددا هاما من هذا الصنف من الأندلسيين ورغم المضايقات والمشاكل التي واجهوها من الأهالي كما يذكرعبد الجليل التميمي[3] إلا أن الموريسكيين عرفوا بمهاراتهم في مجال الاقتصاد لذلك كان لوجودهم بالجزائر انعكاسا إيجابيا على الناحية العمرانية التي شهدت نموا ملحوظا لم تعرفه البلاد منذ العهد الحمادي، تمثل هذا النمو في إنشاء مراكز عمرانية سيكون لها الأثر الايجابي على اقتصاد هذا البلد في جميع المجالات : الزراعي والصناعي والتجاري والخدماتي.

---

[1]- التميمي (عبد الجليل)، " تأملات جديدة حول مصيرية الموريسكيين – الأندلسيين بعد سقوط غرناطة وحتى طردهم من الأندلس 1609 "، م . ت . م، العدد 75 – 76، ماي 1994، ص 355.

[2]- يؤكد عبد الجليل التميمي " أن نصف مليون نسمة أجبروا على ترك وطنهم الأندلسي ما بين سنة 1485 م 1615 وأن نفس هذا العدد وقع دمجه تماما في المجتمع الإسباني، بعد أن فرض عليه التعميد القسري والتخلي عن جميع مقوماته"، نفس المرجع، ص 355. .

[3]- يؤكد عبد الجليل التميمي أن بعض المدن والموانىء المغاربية قد أساءت إستقبال الموريسكيين في وهران وتطوان والعرايش وخاصة تلمسان حيث قام البدو بسلبهم وقتلهم إلى درجة أنهم كانوا يرغبون في الرجوع إلى إسبانيا ليموتوا مسيحيين ويستدل عبد الجليل التميمي ب H.Ch.Lea الذي ذكر في كتابه « The moriscos of Spain : their conversion and Expulsion Philodephia » في الصفحة 363 " أن فظائع البدو يتمثل في القضاء على ثلثي عدد المهاجرين " كما يذكر " أن الإحصاء العام قدرهم بثلاثة أرباع ". ورد في دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي، م . م . د . ب . ع . م . ت . م .، زغوان 1993. ص 26.

ففي المجال الفلاحي قام الموريسكيون باستصلاح مساحات شاسعة من الأراضي بنواحي متيجة ومرتفعات الساحل وجهات شرشال ونواحي وهران وتلمسان وعنابة فأصبحت سهول متيجة ومرتفعات الساحل القريبة من الجزائر – بفعل فلاحي بلنسية والأرغون – تتميز بزراعة الأشجار المثمرة كحب الملوك (الكرز) والأجاص والتفاح والبرتقال والعنب وتميزت نواحي عنابة بتركز غراسة الزيتون[1] أما مدن البليدة والجزائر والقليعة فقد اختصت بإنتاج الخضر والفواكه وهي منتوجات حسن الأندلسيون أنواعها وطوروا زراعتها مثل التين بنواحي برشك. من ناحية أخرى قاموا بإدخال زراعات لم تكن محور اهتمام الأهالي مثل التوت الأبيض والأسود بمنطقتي القليعة وشرشال والأرز والقطن بجهات مستغانم وملیانة والعنب بإقليم عنابة. إذن نلاحظ أن الجزائر تميزت بالتخصص الزراعي – أي أن كل مدينة تتميز بإنتاج معين وهو أمر مرتبط بنوعية المناخ والتربة.

لم يركز الموريسكيون اهتماماتهم فقط على المجال الفلاحي بل اقتحموا أيضا المجال الصناعي حيث تمكنوا من إقامة المشاغل وإنشاء الورشات واشتهروا بالصناعات اليدوية كالحدادة والنجارة والخياطة ومعالجة الخزف والجلد والحرير حتى أن مصانع الحرير الأندلسية بمدن الجزائر والقليعة أصبحت ذات صيت كبير وذلك لجودة إنتاجها الذي غطى الحاجيات المحلية الجزائرية وتعداها إلى التصدير إلى الأقطار المجاورة مثل تونس[2] وأبرز الصناعات التي استحدثها الأندلسيون بالجزائر نسيج القطيفة " المخمل " وهي صناعة أتى بها مهاجرو غرناطة[3] وصناعة الشبيكة.

---

[1]- تم غرس 30.000 عود زيتون من طرف شيخ الأندلسيين مصطفى قردناش الذي كان لجأ إلى عنابة. سعيدوني (ناصرالدين)، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م، ص 30.

[2]- أخذ من " F.D. de " لـ " Topographie et Histoire général de l'Algérie. " ترجمة " Haédo Monnerau et Berbrugger "، م . إ . رقم 14- 1870. ص 175. ورد في "دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر"، لـ (سعيدوني) ناصرالدين ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م، ص 32.

[3]- آخر معقل لمسلمي الأندلس، سقطت بأيدي المسيحيين سنة 1492 م.

هناك صناعات كانت موجودة في الجزائر قبل قدوم هذه الفئة ولكن هذه الأخيرة طورتها واعتنت بها مثل صناعة الشاشية (الطربوش) التي أصبحت تحظى بسوق خاص بها وهو سوق الشواشي[1] وكذلك صناعة نسيج الزرابي بالنواحي الغربية للبلاد. طبع مجال الأسلحة هو الآخر بالبصمات الموريسكية من صناعة الأسلحة وتحضير البارود إلى تطوير صناعة السفن بمينائي الجزائر وشرشال.

الخاتمة

أردنا من خلال هذا المقال أن نبين دور المدونة التونسية في التأريخ للجزائر خلال القرن التاسع عشر والمساهمة في تأثيث المكتبة التاريخية الجزائرية وإختيارنا لمحمد بيرم الخامس ومؤلفه "صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار " وأحمد بن أبي الضياف وكتابه" إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان" له ما يبرره حيث أردنا قراءة تاريخ وصورة الجزائر بعيون غير جزائرية وبالتحديد تونسية لأن الجزائريين إهتموا بالجانب السياسي وبالتحديد الفترة المعاصرة وتاريخ حركتهم الوطنية ولم يقتحموا بعد التاريخ الذهني، كما أردنا المقارنة بين رؤيتين أولى لمحمد بيرم الخامس الذي زار الجزائر ووصف ما شاهده بعينه فكان بالتالي شاهد عيان لذلك نراه يدقق في كل كبيرة وصغيرة فجاءتنا صورة الجزائر واضحة وإن كانت صورتها السياسية مقتضبة وبين رؤية أحمد بن أبي الضياف - وهي رؤية سياسي كتب من خلال التقارير الرسمية لم يزر الجزائر – التي إقتصرت على الجانب العسكري وعلاقة الإيالة بالإمبراطورية العثمانية مهملا بقية الجوانب ولما نجمع بين الرؤيتية تكتمل صورة الجزائر.

المصادر والمراجع

- ابن أبي الضياف (أحمد)، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، الدار العربية للكتاب، 2004 م.
- ابن عبد العزيز (حمودة)، **الكتاب الباشي**، تحقيق الشيخ ماضور، قسم السيرة، الدار التونسية للنشر، 1970، ج 1.
- الأندلسي (محمد بن محمد) ، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة 1، بيروت، لبنان، 1984.

[1]- اشتهرت بصنعها عائلة القلانسي " بوناتيرو" بحي باب الواد بالجزائر العاصمة، نفس المرجع، نفس الصفحة.

- الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، دار صادر، بيروت، طبعة أولى المطبعة الإعلامية بمصر 1302 هـ
- السراج (الوزير)، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1984.
- الشريف (محمد الهادي)، **ماذا يجب أن تعرف عن تاريخ تونس**، دار سيراس للنشر، تونس، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة، 1980.
- القاسمي (فتحي)، **الشيخ محمد بيرم الخامس حياته وفكره الإصلاحي**، تونس، وزارة الثقافة والإعلام، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس، الطبعة الأولى، 1990 م
- القيرواني (ابن أبي دينار)، **المؤنس فيس أخبار إفريقية وتونس**، دار المسيرة، لبنان، الطبعة الثالثة، 1993.
- ريمون (أندري)، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، ترجمة لطيف فرج، قسم الترجمة، الطبيعة الأولى، القاهرة، 1985.
- عبد السلام (أحمد)، **ابن أبي الضياف حياته ومنزلته ومنتخبات من آثاره**، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984 .
- لعرج (عبد العزيز)، **الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي دراسة أثرية فنية** ، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
- محفوظ (محمد)، **ابن أبي الضياف حياته نظرات في تاريخه** ، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، تونس 1983.
- تابليت (علي)، "يهود الجزائر في الفترة العثمانية (1516 – 1830)"، م. ت. ع. د. ع، 1995، عـ11 و12ـدد.

- JDEY (Ahmed) , **AHMED IBN ABI DHIAF , son œuvre et sa pensée , essai d'histoire culturelle** , Fondation Temimi Pour la Recherche Scientifique et l'Information (FTERSI) , Zaghouan , Janvier , 1996.

-Daumas. E, **la ville arabe et la société musulmane,** Paris, ed 1869

-Raymond (André), **Grandes villes arabes à l'époque ottomane,** sindabad, Paris 18 , 1991

-Yacine (Rachida), " The Economic and Political Role of the Jewish Minority in Algiers at the beginning of the 19th Century ". **R.A**

-M. Eisenbeth, « Les Juifs en Alger en Tunisie à l'époque Turque 1516 – 1830 », **R.A**, 1952, Tome X CVI.

-Rosenstock, M, « The Jews of Algeria » , H.J, Vol III, April, 1956.